الفصل التاسع

فتح المسلمين لبلاد الأندلس[1]

رأينا أن شبه جزيرة إيبيريا كانت فى غابر الأزمان متصلة إتصالا تاماً ببلاد المغرب ، وأن جبال الأطلس فى بلاد الريف كانت هى وسييرا نڤادا[2] سلسلة واحدة قبل أن يجرى الماء بين المحيط الأطلنطى والبحر الأبيض المتوسط فى المضيق الذى كان يعرف قديماً باسم بحر الزقاق ، والذى يسمى الآن مضيق جبل طارق ، وهو مضيق قليل العمق كما علمت .

وما يزال جبل طارق فى أسبانيا وجبل موسى فى الريف يكاد كل منهما يمد يده عبر المضيق تكريماً لتلك الصلة التى كانت تربطهما منذ حقبة لا تعد قديمة بالقياس إلى التاريخ الجيولوجى .

ويقص علينا الأمير شكيب أرسلان ما عاينه من أن شكل الأرض فى الجزيرة الخضراء وطنجة وجبل موسى وسبتة واحد ، وأن المضيق لم ينزع من

---

(١) هذا هو الاسم العربى لشبه جزيرة إيبيريا ولم يسمع عن أحد قبلهم . وأصله غير معروف ، وربما كانت هناك صلة بينه وبين قبيلة الوندال — ويسميهم ابن خلدون القندلس — التى أقامت بالقسم الجنوبى من هذه البلاد نحو عشرين سنة . ولما انحصر نفوذ العرب فى مملكة غرناطة اقتصر إسم الأندلس عليها .

(٢) أسماه العرب جبل الثلج أو جبل شلير . ومعنى نڤادا فى الأسبانية ثلوج هطالة . وأعلى قمة فيه مولاى حسن وتبلغ ٣٥٠٠ متر وكلمة سييرا فى اللغة الأسبانية معناها المنشار وسموا به سلسلة الجبال لأنها تشبه فى تعاقبها أسنان المنشار . وقد نطق بها عرب أسبانيا شارة وجمعوها على شارات .

كل من الشطرين وحدته الطبيعية مع الآخر ؛ ويحدثنا بما سمعه من وجود نوع من القردة قديم يسكن فى برية جبل طارق وجبل موسى على السواء ، وأنه لا وجود لهذا النوع فى غير هذين الموضعين .

وهذا الاتصال الطبيعى بين شبه جزيرة إيبيريا وإفريقية يقابله انفصالها عن بقية أوربا انفصالا يكاد يكون تاماً ، وذلك بقيام حاجز منيع هو جبال البرانس[١] .

وهذه الجبال تمتد بين فرنسا وأسبانيا من ساحل البحر المتوسط إلى ساحل المحيط الأطلنطى ، ويبلغ عرضها ١٤٥ كيلو مترا وتسمو بعض قممها إلى ٣٤٠٠ متر . ولا يكاد يضير هذا الانفصال وجود شعاب (ممرات) عبر تلك الجبال هى عبارة عن تقابل الوديان التى تنحدر من أعاليها إلى الشمال وإلى الجنوب . ويسمى كل ممر من الممرات التى فى القسم الأوسط بورت بمعنى باب[٢] .

وهذه الممرات الوسطى أشد وعورة من مثيلاتها الواقعة فى طرفى السلسلة . على أنه حتى هذه الممرات الجانبية تتيح للمدافعين عن أسبانيا فرصاً للايقاع بأعدائهم . ومن ذلك أن شرلمان دخل أسبانيا سنة ١٦١ هـ — ٧٧٨ م يريد القضاء على دولة بنى أمية فيها . فلما منى بالفشل واضطر أن يعود أدراجه اختار ممراً قريباً من النهاية الغربية لجبال البرت يسمى رونسسڤال Roncesvalles ويسميه العرب باب الشرزى .

---

(١) هذه التسمية مأخوذة من Pirineos ومن أسمائها عند العرب الحاجز .

(٢) من هذه التسمية سمى العرب جبال البرانس بجبال البرت وجمعوها على برتات مع علمهم بأن معناها أبواب وأن المراد خلوق الجبال .

وهنالك حيث الجبال والغابات صمم مسيحيو مقاطعة باسك — ويدعوهم العرب البشكنس — على الانتقام من أعدائهم الإفرنج ؛ فوضعوا لهم كميناً فى أغوار الجبال ، وانتظروا حتى إذا مرت مقدمة الجيش ، انقضوا على المؤخرة — وكانت بطيئة السير محملة بالأثقال — فاستأصلوا رجالها .

ومما يدل على ثبات العوامل الجغرافية أن هذا الممر بذاته هو الذى سيسلكه العرب حين يريدون غزو فرنسا لأول مرة وهو بعينه الذى سلكه الجيش الانجليزى الذى تعقب قواد نابليون سنة ١٨١٣ .

و بسبب هذا الانفصال عن بقية أوربا كانت إيبيريا أكثر اتصالا ببلاد المغرب منها بأوربا فى الجنس والتاريخ : أما الجنس فإن أقدم من عرف من سكانها قوم من الجنس الحامى يسمون الإيبيريين يشبهون البربر سكان بلاد المغرب فى كثير من صفاتهم الجثمانية وفى عاداتهم وتقاليدهم . وأما فى التاريخ فقد تقدم لك أن من ملك إحدى ضفتى مضيق جبل طارق لا بد أن يحاول امتلاك الضفة الأخرى .

وأهم ميزة فى سطح ايبيريا بعد جبال البرت وسيبرا نفادا إنما هى الهضبة الوسطى المعروفة باسم مسيتا Meseta وتشغل أكثر من نصف المساحة ؛ ويتراوح ارتفاعها عن سطح البحر من ٦٠٠ متر إلى ٩٠٠ وتكاد الجبال تحف بها من جميع نواحيها : فالى الشمال منها توجد جبال كنتبريان وهى امتداد لجبال البرت ما يزال مغربا حتى الزاوية الشمالية الغربية من شبه الجزيرة مخترقا اقليم أشتورش (استوریاس) واقليم جليقية (جاليسيا) حيث يلتوى إلى الجنوب فيصل إلى نهر دورو و بذلك يغلق السهل الساحلى الغربى من ناحيته الشمالية .

و يلى ذلك سلاسل أخرى لاصقة بالهضبة من ناحية الغرب وفاصلة بينها

و بين السهل الساحلى الغربى . وما تبرح تستطيل حتى تتصل بسييرا موريد التى تفصل الهضبة عن سهل الأندلس ، والتى يجىء بعدها سلاسل جبال مرسية وغيرها فتحول بين الهضبة و بين السهول الساحلية المعروفة باسم مرسية و بلنسية وقطلونية (كتالونيا) وحوض نهر إبره (إبرو) .

ولم تكتف الهضبة ، بعد ارتفاعها عن السهول وعزلتها عنها ، بأن تبقى مستوية السطح فتكون بذلك على نسق واحد ، بل سمحت لسلسلتين من الجبال أن تجعلا منها ثلاثة أقسام . فأما السلسلة الأولى فسييرا جوا دراما[1] . وهذه الجبال تسير من وادى إبْرُه فى اتجاه جنوبى غربى إلى أن تبلغ ساحل المحيط الأطلنطى وتعزل قسما كبيراً من الهضبة ناحية الشمال . وأما السلسلة الأخرى التى تخترق الهضبة فاشهر اسمائها جبال طليطلة .

ومما هذا يتضح لك أن شبه جزيرة ايبيريا منعزلة عن غيرها بسبب إحاطة الماء وجبال البرت بها ، وأنها بذلك اقليم جغرافى متميز عما سواه كل التميز . فكان المنتظر أن تصلح لجمع شمل الشعب الذى ينزل بها ؛ لكن هذه الوحدة قد حال دونها توزع السطح بين هضبة عالية مسورة بالجبال ومنقسمة على نفسها ، و بين سهول ووديان عديدة تفصلها سلاسل جبال تعوق الاتصال وتبادل السلع والأفكار ، وليس بها موقع متوسط كموقع القاهرة والخرطوم تصله الطرق الطبيعية بأنحاء القطر المختلفة وتلتقى فيه مصالح الشعب وثقافته .

و بسبب انعزال أجزاء إيبيريا بعضها عن بعض عاش أهلها من أول الأمر عيشة القبائل المتفرقة و باعدت العصبية القبلية بين هذه المجموعات . ولم يخفف

---

(١) يسميها العرب وادى الرملة ويطلقون عليها اسم جبال الشارة.

من أثر هذا التباعد نزول شعوب أخرى كالفينيقيين والاغريق والقرطاجنيين ، لأن هؤلاء المستعمرين اكتفوا باقتطاع جزء من البلاد استقروا فيه حينا ثم جلوا عنه دون أن يفكروا فى جمع شمل الشعب . فبقى السكان وحدات صغيرة شأنهم فى ذلك شأن البربر والاغريق القدماء .

فلما تمكن الرومان من طرد القرطاجنيين من أسبانيا سنة ٢٠٦ ق . م . بذلوا جهود الجبابرة لتوحيد أجزاء ايبيريا ، فقاومهم أهلها طوال قرنين من الزمان وأظهرت الوحدات المحلية ضروبا نادرة من البطولة فى الدفاع عن أوطانها الخاصة ، وعزتها المحدودة وكان من الطبيعى أن تجىء أشد المقاومة من أهل الشمال والشمال الغربي حيث جبال البرت وجبال كنتبريان وحيث الغابات الكثيفة والبرد القارس ، وحيث يقيم من قديم الزمان البشكنس (الباسك) وأهل اشتورش والجلالقة (سكان جاليسيا) .

ولم يكن نضال مئتى عام كافياً لاخضاع هذه القبائل الشديدة المراس ، فلم يجد الرومان بدا من نقل كثير منهم من هذه المواطن الوعرة إلى السهول الساحلية فى الجنوب الشرقى .

وظهرت هذه الوطنية المحلية بعد ذلك بثمانية عشر قرناً حين صمم نابليون على امتلاك إيبيريا ، فدخل اسبانيا سنة ١٨٠٧ وحشد فيها أكثر من مائة الف من خيرة جنوده يقودهم عباقرة الحرب من قواده ، وحضر هو بنفسه يستنهض الهمم .

فى تلك الآونة أحس أهل أسبانيا أن من العار خضوعهم للاجنبى ، فثارت الوحدات المحلية بالعدو . وكان أولها ثورة عليه أهل اشتورش أولئك

الذين شتت الرومان أسلافهم فطبعتهم البيئة على غرار هؤلاء الأسلاف . وحاكت وحدات أخرى اشتورش وجعلت جماعات المتطوعين من كل وحدة تنقض على الفرق الفرنسية فى الوديان كلما لاحت الفرصة يقتلون و يسلبون و يقطعون خطوط المواصلات ، فإذا تكاثر عليهم العدو أسرعوا إلى قنن الجبال حيث لا يستطيع الجيش الفرنسى تعقبهم .

ومع أن نابليون ورجاله اتوا بالعجب العجاب فقد عجزوا عن قهر هذه الجماعات حتى عد المؤرخون أن ثورتها كانت من أكبر عوامل سقوط نابليون .

ولا تزال العوامل الجغرافية إلى يومنا هذا تعمل على تفريق أهل إيبيريا ؛ ومن ذلك أن انعزال السهل الساحلى الغربى عن الهضبة الوسطى وعن جليقية كما رأيت أدى إلى قيام دولة منفصلة فى هذا السهل هى دولة البرتغال . وساعد على هذا الإنفصال أن نهر دورو ونهر تاجه عندما يهبطان من الهضبة يجريان فى السهل ، على صورة خانقين عميقين لا يصلحان أداة اتصال بين السهل والهضبة .

وزاد هذا الانفصال توكيداً أن الطرق الطبيعية فى السهل لا تسير من الشرق إلى الغرب ، بل هى على العكس تمتد من الشمال ومن الجنوب وتتجمع حول لشبونة . ولهذا السبب ، ولوقوع هذه المدينة على مصب نهر تاجه وهو مصب يتسع — كما يقولون — لإيواء أساطيل أوربا كلها ، اتخذ البرتغاليون لشبونة عاصمة لبلادهم .

و باستقلال هذه الدولة عن بقية إيبيريا ، استطاعت أن تعمل لحسابها الخاص ، فانتزعت بقية السهل من أيدى العرب ، واستغلت موقعها البحرى

وثغورها الجيدة فى إنشاء أسطول لم تقنع منه بالدفاع عن نفسها ، بل استخدمته فى الاستيلاء على سبتة سنة ١٤١٥ أى قبل خروج المسلمين من أسبانيا بسبعة وسبعين عاما .

و بهذا الأسطول بدأت سلسلة الرحلات الكشفية التى كان القصد الأول منها تطويق المسلمين ، والتى حققت آخر الأمر ، ما يقرب من هذا القصد بوصول فاسكودى جاما إلى الهند سنة ١٤٩٨ ، وما نشأ عن ذلك من القضاء على تجارة المسلمين من مصريين وعرب ، ثم محاولة بعض البرتغاليين التحكم فى الحرمين الشريفين .

ومن أثر البيئة فى حياة أسبانيا أن الأسبانى من أهل قشتالة مثلا يكاد يعد الأسبانى من أهل الأندلس أجنبياً عنه ؛ ومنه أن بأسبانيا اليوم ٥٠٠٠ قرية لا توجد مسالك طبيعية يمكن تسميتها طرقاً تصل إحداها بالأخرى أو تصلها ببقية البلاد .

ومن أثر البيئة أن السكان لاحظوا أن الرياح الغربية إذا هبت على الهضبة أسقطت أمطارها على سفوحها الغربية ولم يصل إلى وسطها من المطر إلا القليل ، وأنها بذلك لا تنعم بمناخ غرب أوربا ولا بمناخ البحر المتوسط ، بل تقاسى مناخا قاريا شديد الحر فى الصيف قارس البرد فى الشتاء وأنها بالتالى قاحلة فى الجملة يتجرد قسم منها من النبات . ومن أجل ذلك هجروها ، و بنوا المدن على السواحل الشرقية وفى السهول المجاورة لها ، وهى أقاليم تتمتع بربيع يكاد يستمر طول السنة . وآثروا الجنوب كذلك لأنه رغم تعرضه للرياح الحارة التى تهب من أفريقية ، مزدهر كثير المياه صالح للزراعة . ولاحظ

الأسبان أن هذه المدن بعيدة عن التوسط فى بلادهم ، بحيث لا تصلح واحدة منها أن تكون عاصمة ؛ واضطروا إلى اختيار مكان يتوسط البلاد ولو كان على الهضبة الباردة القليلة الماء القاحل أكثرها ، وآثروا أخف الأضرار باختيار مجريط (مدريد) ، لوقوعها فى مفترق الدروب التى تخترق جبال وادى الرملة (جوادراما).

و بعد هذا التمهيد الذى يدل على أن الطبيعة يسرت إيبيريا لنشوء وحدات منعزلة يعيش أهل كل منها كما تعيش القبيلة ، و بخاصة من حيث الاعتماد على رجالها فى الدفاع عن كيانها ، والتفانى فى الذود عن استقلالها ، نعجب للسهولة التى بها استولى المسلمون من عرب و بربر على هذه البلاد . لكن هذا العجب يتلاشى إذا علمنا أن الحواجز الطبيعية المنبثة فيها ، من شأنها أن تجعل التوغل فيها صعبا ، وأن تهيىء للمدافعين عنها فرصاً كثيرة ، ولكنها لا تدفع بنفسها جيشاً يتحرق شوقاً للفوز بخير الدنيا والآخرة .

أما لماذا لم يستغل أهل إيبيريا بيئتهم فى وجه المسلمين كما استغلوها فى وجه الرومان من قبل ، وفى وجه شرلمان ونابليون من بعد ، فمرده إلى أسباب كثيرة أهمها ما يأتى :

أولا — أن القوط حين كانوا شعبا محاربا دخلوا شبه الجزيرة وطردوا منها الوندال والروم واستقلوا بها منذ سنة ٤٨٤ م ، و بقيت فى يدهم أكثر من مائتى عام . وكان يرجى منهم ، وقد تنصروا ، أن يصلحوا ما فسد من أمرها . لكنهم لم يمتزجوا بالسكان الأصليين بحيث يصيرون و إياهم شعباً واحداً ، بل عاشوا فئة قائمة بذاتها منها الملك وجميع أشراف المملكة ؛ واختصوا أنفسهم

بامتلاك الضياع الواسعة ، وحرموا المصاهرة بينهم و بين الأهلين ، كأنما كانوا من طينة غير طينتهم وكأنما كانوا حامية عسكرية فى بلد أجنبى .

وكان يجب عليهم — والحالة هذه — أن يحتفظوا بحيويتهم ، وأن يقضوا فراغهم فى التدرب على فنون القتال كى يستطيعوا إخضاع ثورة داخلية إن حدثت ، أو يردوا عدواً إن تجرأ أحد على مغالبتهم ؛ ولكنهم سرعان ما نسوا مهنة القتال الشريفة . وانغمسوا فى الترف والشهوات الدنيئة ، وعولوا على الأهلين فى تزويدهم بكل ما يلزم لهذه الشهوات وذلك الترف .

وكان الشعب من تحتهم طائفتين منفصلتين ، إحداهما طائفة العبيد وأحلاس الأرض أو قل أرقاء الضياع . وكان للسيد على العبد حق الحياة والموت بمعنى أن القانون والعرف لا يمنعانه من قتله متى شاء ، ولا من تعذيبه بما يريد ؛ وكان أحلاس الأرض يلزمون ضيعة سيدهم يزرعونها مسخرين لا يفارقونها حيثما يتنقلون معها من مالك إلى مالك . ولم يكتف منهم السادة القوط بذلك بل حتموا عليهم ألا يتزوجوا إلا برضاء السيد ، وأنهم إذا أصهروا من ضيعة أخرى قسمت ذريتهم بين صاحبى الضيعتين .

والطائفة الثانية كانت تسمى الطبقة المتوسطة وأفرادها سكان المدن الأحرار . وقد لاقت هذه الطبقة من ضنك العيش ما كان شراً مما يلاقيه العبيد : ذلك بأن عبء الضرائب كان يقع عليهم فهم الذين يدفعون الأموال ليبعثرها الأغنياء فى لذائذهم .

وزاد الحال سوءاً أن رجال الدين الذين كان يرجى منهم الأخذ بيد الضعفاء على نحو يقربهم من خطة المسيح عليه السلام ، انتهزوا فرصة تنصر

القوط وانصياعهم للكنيسة وأوغلوا فى السيطرة على أمور الدين والدنيا ؛ واقتنوا الضياع الواسعة ، وصمموا على إعفائها من الضرائب أسوة بضياع الأشراف ، وأرهقوا عبيدهم وأحلاس أراضيهم بالعمل ، وأمعنوا فى القسوة عليهم .

ولما عظمت ثروتهم وتتضاعف نفوذهم تطلعوا إلى السيطرة على سياسة الدولة حتى غلب نفوذهم على نفوذ الأشراف وصار أكثر الأمر والنهى إليهم . وظهر ذلك فى اضطهاد اليهود — وكانوا فئة كبيرة العدد موفورة النشاط — وحاولت الكنيسة تنصيرهم بالعنف والمطاردة ، وخيرهم الملوك بين التنصر والنفى والمصادرة ، فاعتنق النصرانية كثير منهم كرها ورياء ، ثم توالت عليهم المحن فلجأوا إلى التآمر مع بنى جنسهم فى بلاد المغرب ودبروا الثورة ، وذلك قبل الفتح الإسلامى بسبع عشرة سنة فقط . فلما كشف عن المؤامرة سنة ٦٩٤ تقرر نزع أملاكهم جميعها وتسليمها إلى العرش ، كما تقرر أن يهبهم الملك عبيداً لمن شاء ، وأن يربى أبناؤهم منذ السابعة على النصرانية ، وألا تتزوج يهودية إلا بنصرانى .

على مثل هذه الحال كان الناس فى الأندلس قبيل الفتح الإسلامى . وكان يحكمهم الملك غيطشه[1] . وقد اشتهر أول الأمر بحسن السيرة ، ولكنه رأى أن نفوذ الأشراف ورجال الدين قد أفسد السياسة ، وحاول التخفيض من هذا النفوذ فثاروا عليه أكثر من مرة ، ونجح هو فى إخماد ثوراتهم وهدم كثيراً من حصونهم ليجردهم من وسائل العصيان . فلم يزدهم ذلك إلا عنادا

(١) هذه هى التسمية العربية ، واسمه الأصلى وتيزا .

والتفوا حول زعيم يسمى لذريق[1] ، ولما كثر أتباعه نادى بنفسه ملكا .

واشتعلت الحرب الأهلية بين الفريقين ووجد غيطشه وأولاده من بعده أعواناً يناصرونهم . وفى هؤلاء الأعوان أخو غيطشه وكان على رأس الكنيسة باعتباره أسقف طليطلة .

فلما انتصر لذريق بحث خصومه عن حلفاء وعولوا فى ذلك على الكونت يوليان حاكم سبته ، وكان غيطشه يعتمد عليه فى حفظ هذا الحصن الحصين ويمده بأشجع جنده ؛ وانحاز يوليان إليهم بكل قلبه ، فزار موسى بن نصير الذى طالما اشتبكت سيوفه بسيوفه ، فاخبره أنهما منذ اليوم صديقان حميمان ، وكشف له عن اضطراب بلاد الأندلس وتفرق أهلها شيعا .

واستأذن موسى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك فنصح له بالحذر والتروى . وعلى أساس هذه النصيحة أرسل موسى ٥٠٠ رجل بقيادة طريف ابن مالك أبحروا على أربع سفن ليوليان للاغارة على الأندلس . وملأ نجاح طريف قلب موسى ثقة بالنصر . وجاءت التضاريس فأتاحت له الفرصة إذ ثار البشكنس — الذين قاوموا الرومان من قبل ، وقاوموا شرلمان ونابليون من بعد — ثار هؤلاء الجبليون الأشداء فى وجه لذريق فاضطروه إلى الذهاب إلى أقصى شمال البلاد للقضاء على ثورتهم .

واهتبل موسى الفرصة وأرسل طارق بن زياد البربرى سنة ٩٢ هـ — ٧١١ م . وأرسى طارق سفنه عند الصخرة التى حملت اسمه منذ ذلك الحين ، فدعيت جبل طارق . ثم استولى على هذه الصخرة وحصنها تحصيناً منيعاً ضماناً

---

(١) يسميه العرب لذريق ورذريق واسمه الأصلى رودريك .

لاتصاله بأفريقية ، وتقدم يختبر حال البلاد ، وجاء لذريق على عجل والتقى الجيشان على نهر سماه بعض مؤرخى المسلمين وادى بكة وسماه الأكثرون وادى لكة[1] قرب مدينة شريش .

وكان جيش المسلمين إذ ذاك قد بلغ ١٢٠٠٠ يواجههم لذريق بستة أمثال هذا العدد من خليط العبيد والاحلاس وأوساط الناس .

وكان بين قوادهم الخونة من الأشراف وعلى رأسهم إبنا غيطشه وأخوه أسقف طليطلة . وقد ظن هؤلاء الخونة واهمين أن المسلمين لم يقصدوا إلا إلى النهب والغنيمة ، وأنهم متى امتلأت أيديهم بالأسلاب عادوا إلى أفريقية . وشجعهم موسى على الاستمساك بهذا الوهم ، ومناهم بعودة عرش الأندلس إلى سلالة غيطشه .

يقابل هذه الجموع المتنافرة المتخاذلة المتحاسدة جيش وطد نفسه على نيل إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، يقوده بطل قلما تلد الأمهات مثله . ودارت المعركة سبعة أيام ويقول دوزى : « لا ريب أن شبه الأرقاء كانوا فى الجيش أكثر بكثير من الأحرار ، ومعنى هذا أن الدفاع عن الدولة كان موكولا إلى أناس يؤثرون ممالأة العدو على الذود عن ظالميهم » . وكان يوليان والأسقف — وهما فى صف المسلمين — يستميلان كثيراً من جند القوط ، ويشيعان التفرق والشقاق بينهم .

وانتهت المعركة بانتصار طارق واختفى لذريق فلم يعرف مصيره وأكثر الظن أنه غرق وحمل النهر جثته إلى المحيط .

ويقول مؤرخ إنجليزى : « ليس فى تاريخ العالم نصر أتم من النصر

(١) واسمه الحقيق جواد ليت Guadelete .

الذى أحرزه طارق على شواطىء نهر لكة ، لأن نتائجه لم تكن قاصرة على ميدان القتال ، بل ثبتت سلطان الخليفة — وهو فى دمشق — على شبه الجزيرة بأكملها ؛ ولم تكن هناك حاجة لضربة أخرى كى تفصل هذا العضو المهم عن جسم المسيحية ، وكسب هذه الجائزة الثمينة للهلال . و بلغ من أثرها أن اعتبرها الأتقياء من مؤرخى الأسبان تدخلا مباشراً من السماء ، وانتقاماً إلهياً جلبته كثرة الخطايا الشنيعة التى اقترفها ملوك القوط كما جلبها إعراض الناس عن الكنيسة : ذلك بأن القوط على ما يظهر فقدوا كل أمل فى المقاومة بعد ذلك ، فجرى فيض الإسلام كأنه الطوفان وسامت مدينة بعد أخرى دون أن يُسل سيف وفى مدى عامين بلغ جيش موسى — وهو ما يزال قليل العدد — سفوح البرانس » .

وهنالك تعود البيئة إلى إملاء إرادتها إذ تضطر طارقاً إلى إرسال ثلاث فرق تقصد كل فرقة إلى ناحية معينة ؛ و يتجلى ذلك فى مدافعة الكونت تيودمير عن ممرات جبال مرسية حتى اضطر إلى التسليم . أما جمهور الجيش فسار بقيادة طارق و إرشاد يوليان والأسقف إلى عاصمة القوط وهى طليطلة ، وكان القوط قد فروا منها نحو الشمال بأموالهم وآثار قديسيهم فاستولى طارق عليها واختار لحكمها أسقفها السابق وهو أخو الملك غيطشه . وسار شمالا فى وهادومفاوز صعبة يطارد بقية القوط فى أقصى اشتورش وجليقية حيث اعتصموا بجبالها الشامخة المعرضة للرياح الهوج والأمطار الهطالة والمكسوة بالغابات الكثيفة .

وأحس موسى بن نصير أن طارقا يوشك أن يعرض المسلمين لخطر محقق

فكتب إليه أن ينتظر لحاقه به ، على أن موسى وجد أن الحيطة العسكرية تقتضيه ألا يقصد إلى طارق رأساً ، بل إنها لتحتم عليه إخضاع المعاقل التى تركها طارق خلفه بدافع الرغبة فى ملاحقة فلول القوط . ومن أجل ذلك قصد موسى إلى قرمونة وهى يومذاك من أمنع معاقل الأندلس ، فاستولى عليها بمعاونة يوليان وأصحابه . ثم افتتح غيرها من المدن التى لانريد أن نثقل عليك بذكرها و بحسبك أن تعرف أنه حاصر بعضها شهراً ، وأنه فقد عدداً كبيراً من جيشه فى الأستيلاء على بعضها الآخر .

و بعد أن اطمأن إلى أنه لم يعد يخشى المفاجأة أو قطع مواصلاته يمم طليطلة حيث قابل طارقاً ، وعتب عليه إسراعه إلى الشمال قبل القضاء على كل مقاومة فى الجنوب . ثم اتفق الإثنان على الخطة المثلى لفتح بقية البلاد ، وأهم ماقام به موسى اجتياز جبال البرت[1] وفتح جزء من أرض فرنسا الحاليـة كان تابعاً للقوط ، على نحو مافعله عمرو بن العاص حين فتح برقة عقب الفراغ من فتح مصر باعتبار أن برقة كانت إذ ذاك تابعة لمصر .

أما طارق فتوجه إلى أشتورش وجليقية حيث اعتصم الفدائيون من القوط وطال تعقبهم فى تلك المخابئ الوعرة ، حتى اضطر موسى أن يعود لمعاونته ، واستولى القائدان على أكثر معاقلها . فلما لم يبق إلا طرفها الشمالى الأقصى جاءه كتاب الخليفة للمرة الثانية بأن يقفل راجعاً هو وطارق إلى دمشق . و إذا أنت أمعنت النظر فى الظروف التى عبر فيها موسى إلى الأندلس وقدرت

---

(١) كان اجتيازه عن طريق ممر رونسيسفال Roncesvalles السالف الذكر وهو الذى يسميه العرب باب الشرزى .

الأعمال الجليلة التى قام بها تبين لك أن وجوده فى تلك البلاد ومعه ١٨٠٠٠ جندى كان ضرورة حربية ولم يكن حسداً لطارق . وقد أحسن على الجارم بك عليه رحمة الله إذ رجح أن قصة الحسد من وضع العباسيين .

أما هؤلاء الفدائيون من القوط الذين امتنعوا فى أشتورش فإنهم استغلوا البيئة الجبلية الباردة المطيرة الكثيفة الغابات التى لا يصلح العرب فيها ، شأنها فى ذلك شأن جبال طوروس والقسم الشمالى الشرقى من تركستان والتِّبَت وما إلى ذلك .

وهذه البيئة هى التى أتاحت لعشاق الحرية فى كل عصر أن يمتنعوا على أعدائهم فقد كانت موطن المقاومة للقرطاجنيين والرومان والقوط ثم صارت موطن المقاومة للمسلمين . ولا عجب فقد وصف الشاعر الرومانى ساكنيها بأنهم لا يخضعون لبرد ولا لحر ولا لقحط ، وأنهم قوم لا يطيقون الحياة بغير قتال . وفى هذا المعتصم الأمين أقام رجال أحرار ومعهم آثار القديسين وكتب الشريعة المسيحية وملابس الكنيسة وأدواتها وما إلى ذلك مما أذكى فى نفوسهم نار الوطنية ، وهنا اختلط القوط اللاجئون بالسكان الأصليين بحكم البيئة ، لأن وديان اشتورش الضيقة لم تكن تتسع إلا لشعب واحد ، فكان من حكم الطبيعة أن يعيش السكان على قدم المساواة ، وأن ينسوا تلك الفوارق المرتبطة بالثروة الواسعة والأصل العريق ، واختار الشعب الوليد بملء الحرية زعيما رأوه أهلا لحمل هذا العبء الشريف ، وهذا الزعيم هو بلاى Pelagius .

واختار بلاى معتصمه بين الجبل والبحر ، فلما عبر المسلمون الجبل سنة ٧١٨ وأشرفوا على خنادقه قابلهم أصحابه بوابل من الحجارة أحدث بينهم

اضطراباً ثم انقضوا عليهم فهزموهم . ومما يشير إلى أهمية هذا الانتصار فى تاريخ أسبانيا أن مؤرخيها يقولون إن رجال بلاى كانوا ثلاثين ، وأنه قتل من العرب ١٢٤٠٠٠ فيهم قائدهم ، وغرق منهم ٦٣٠٠٠ وفر منهم إلى فرنسا ٣٧٥٠٠٠ كلهم اختفوا ولم يعرف عنهم خبر .

و إلى هذا المعتصم هاجر كل من خسر بدخول المسلمين ، وكل من أبغض الإسلام ، وكل من تطلع إلى بعث جديد . ولم يمض على انتصار بلاى أربعون سنة حتى كان القسم الجبلى الذى يلى الهضبة شمالا فى يد النصارى ، وحتى كان المسلمون قد تجمعوا فى الأقاليم الشرقية والجنوبية الدفيئة ولم يتجاوزوا سلسلة جبال وادى الرملة شمالا .

أما مايقع خلف ذلك إلى الشمال ، وهو جزء الهضبة القارس البرد والقاحل أكثره ، فاكتفوا فيه بحاميات قليلة ومن ثم كان موضع نزاع بينهم و بين النصارى طيلة ثلاثة القرون الأولى التى أعقبت الفتح : ذلك بأن العوامل الجغرافية التى لمحنا أثرها فى تفريق السكان جماعات منعزلة عادت فأحدثت أثرها بمجرد خروج جماعة بلاى من ملجئها الأول فى اشتورش وتوزعها فى الوديان المختلفة واختلاط كل فريق منهم بأهل الوادى الذى نزلوه ، فبعد أن كانوا كتلة متضامنة متحمسة للدين والوطن صاروا جماعات أو قل قبائل بل شعوبا متطاحنة متقاتلة على حد قول أحد المؤرخين الإنجليز :

« أصبح واجب تخليص أسبانيا ثانويا بالنسبة للاطماع الشخصية ، و بالنسبة لرغبة كل أمير فى تحطيم من سواه من الأمراء : ملك يحارب ملكا ، وقشتاله

(كستيل) تقاتل أرغون ، وأرغون تحارب نبره (نفارة) ، والبرتغال تقاتل واحدة أو أكثر من بقية الأمارات ، ولم يكن ملك ليستطيع أن يغيب طويلا عن ملكه خوفاً من أخيه الملك المسيحى . ولا يتحد ملكان مسيحيان أو أكثر إلا بقصد اقتسام الغنيمة . ومن أجل ذلك لم تحدث حرب صليبية جديرة بالإسم إلا بعد اتحاد أرغون وقشتالة سنة ١٤٧٩ حين اعتلى فرديناند عرش أرغون وكان قد تزوج من إيزابلا ملكة قشتالة . أى بعد دخول العرب إلى الأندلس بنحو ٧٦٨ عاما . وتصادف أن كان الزوجان متفقين فى شدة البغض للمسلمين فصمما على طردهم نهائياً من أسبانيا .

ولم يكن المسلمون بمنجاة من العوامل الجغرافية ، بل لقد فرقتهم هذه العوامل كما فرقت أعداءهم . ويكفى للتدليل على ذلك مجرد ذكر أسماء الأمارات والممالك الإسلامية التى تنازعت على ما بقى للمسلمين فى تلك البلاد فحكم فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى نحو عشرين أسرة مستقلة فى نحو عشرين مدينة أو مقاطعة ، ومن أشهرهم بنو عباد فى أشبيلية و بنو حمود بمالقة والجزيرة ، والأدارسة بغرناطة ، و بنو هود بسرقطة ، و بنو ذى النون بطليطلة ، و بنو جهور فى قرطبة . فأصبح الخطر من سقوط الدولة وتحطمها بارزا للعيان ، واهتبل نصارى الشمال الفرصة كما رأيت .

أما عن انتشار الإسلام واللغة العربية فى إيبيريا فنكتفى بما أورده مؤلف من كبار المسيحيين هو السير توماس ارنولد فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » حيث يقول : « رحب بالمسلمين هؤلاء الأرقاء الذين حل بهم البؤس والشقاء ،

فى عهد المسيحيين الكاثوليك . وكان هؤلاء الأرقاء أول من تدين بالإسلام فى أسبانيا ... كما اعتنق الدين الجديد كثير من أشراف المسيحيين ، يضاف إلى ذلك عدد كبير من الطبقات الدنيا والوسطى دانوا بالإسلام عن إيمان ثابت » .

وسرعان ما أخذت دراسة اللغة العربية تحل محل دراسة اللغة اللاتينية فى فى جميع أرجاء البلاد حتى قال أحد القسوس : « إن شبابنا المسيحيين يسترعون الأنظار بتشبعهم بالبلاغة العربية ، فنراهم يتناولون كتب المسلمين و يطالعونها بلهف ، و يناقشونها فى حماسة وغيرة ، و يشيدون بذكرها ، و يمتدحونها بكل ضروب التنميق فى اللفظ وحسن البيان ، على حين أنهم لا يفقهون شيئاً من جمال الأدب الكنسى . . . وأنت واجد بين جمهرة السوقة والعامة أشخاصاً لايحصى عددهم ، يحيطون إحاطة تامة بالعبارات الفصيحة التى خلفتها اللغة العربية فى عصورها الذهبية ، حتى لقد استطاعوا أن ينظموا القصائد المقفاة ، تلك القصائد التى يتجلى فيها أسمى مراتب الجمال ، بل لقد صار بعضهم أمهر من العرب أنفسهم فى قرض الشعر »

و يختم سير توماس أرنولد هذا الموضوع بقوله : « قد بلغ من تأثير الإسلام فى نفوس معظم الذين تحولوا إليه من مسيحيي أسبانيا مبلغاً عظيما ، حتى سحرهم بهذه المدنية الباهرة ، واستهوى أفئدتهم بشعره وفلسفته ، وفنه الذى استولى على عقولهم و بهر خيالهم ؛ كما وجدوا فى الفروسية العربية الرفيعة مجالا فسيحاً

لإظهار بأسهم ، وما تكشفت عنه هذه الفروسية من قصد نبيل وخلق قويم » .

أما من حيث نسبة من دخلوا فى الإسلام من الأسبان إلى العرب فيقول مؤرخ كتب سنة ١٣١١م « أنه لم يكن من بين المائتى ألف من المسلمين الذين كانوا يعيشون فى مدينة غرناطة فى ذلك الحين أكثر من خمسمائة من أصل عربى ، على حين كان سائر هؤلاء المسلمين من أهالى بلاد الأندلس الأصليين تحولوا إلى الإسلام »

الهنـــد

لم تكن الهند فى سالف الأحقاب على الصورة التى نراها الآن ، بل كانت أقساماً ثلاثة : جزيرة مثلثة الشكل تمتد من قرب خط الاستواء إلى مدار السرطان وتكاد الجبال تحيط بها من جميع جهاتها ، يليها إلى الشمال بحر على شكل مثلث كذلك يصل بحر العرب بخليج البنغال ؛ وتطل على هذا البحر من ناحية الشمال قوس هائلة من جبال متوجة بالجليد تطوقه من بدايته عند بحر العرب إلى نهايته عند خليج البنغال . وينهمر على هذه الجبال — متى أقبل الصيف — مطر هو على بعض أجزائها أغزر مطر فى العالم بأسره ، ويذوب بعض ما يغطيها من الجليد . ويكتسح هذا وذاك قدراً لا يستهان به من تربة هذه الجبال ويلقيان به فى البحر الذى يفصلها عن الجزيرة .

وداب المطر وذوب الجليد على عملهما ألوف السنين فامتلأ البحر غريناً ناعماً تكاد لا تجد به حجراً واحداً ، فإذا بالبحر قد استحال سهلا فيضياً متسعاً يجرى على سطحه أنهار عظيمة نسميها الآن نهر السند بفروعه الخمسة التى سمى سقيها « البنجاب » بمعنى أرض الأنهار الخمسة ، ونهر الكنج منضما إليه رافده الكبير چمنة ثم نهر برهما پوترا . وعلى الرغم من أن البحر قد أصبح سهلا متصلا بالجزيرة ، فإن أثر الانفصال القديم ما يزال ظاهرا للعيان بحيث يمكن تقسيم الهند ثلاثة أقسام كبيرة يختلف كل منها عن زميليه اختلافاً بيناً : أولها النطاق الجبلى الذى يفصل الهند عما حولها فصلا يكاد يكون تاماً كما

سترى ؛ وثانيها هذا السهل الذى يعد الجزء الشرقى منه من أخصب الأرضين بفضل ما يجلبه إليه نهر الكنج من ذلك الغرين الخصيب الذى من أجله قدس أهل البلاد هذا النهر العظيم ؛ وثالث الأقسام تلك الجزيرة القديمة التى سعى إليها السهل حتى التصق بحافتها الشمالية ، فلم تستجب لتقربه منها ، بل أبت عليه إلا توكيد العزلة ؛ فأقامت بينها و بينه فواصل ثلاثة : أولها سلسلة جبال وندهيا[1] التى تمتد من الساحل عند الطرف الغربى للمثلث الذى نسميه الدكن وتسير إلى الشرق حتى تكاد تغلق المثلث ؛ وثانيها خانق عميق حفره فى هضبة الدكن نهر نَرْبَدا الذى يصب فى بحر العرب ونهير سون الذى يصب فى نهر الكنج ؛ وثالثها سلسلة جبال سات پورا التى تبدأ من الساحل الغربى قرب مصب نربدا وتسير شرقاً محاذية لهذا النهر ولجبال وندهيا ثم تجاوز هذه الجبال فى اتجاهها الشرق .

وكان من نتائج هذه العزلة التى اختارتها شبه جزيرة الدكن أن الأقدمين قسموا الهند قسمين : الهندوستان و يشمل السهل والجبال الشمالية ، والدَّكن وكان يطلق على كل المثلث الذى كان جزيرة من قبل . ومن نتائجها أن زهد أكثر الفاتحين فى التوغل فيها ، ولم ينزلوا بطرفها الجنوبى أبدا . و بذلك حافظ الذين اختاروا الإقامة فى هذا القسم الجنوبى على استقلالهم فى أكثر أدوار التاريخ بفضل جباله الوعرة وغاباته الكثيفة وشدة الحر والرطوبة فى بعض جهاته الغربية وشدة الجفاف وما يتبعه من القحط فى بعض جهاته الشرقية ،

---

(١) هذا هو الإسم كما يرسم بالحروف العربية فى اللغة الأردية ، ومن أسمائها الشائعة ڤنديا وڤندى .

ومن أسوأ نتائج العزلة تخلف الدكن فى الحضارة من حيث الزمن ودرجة الرقى .

ولم تكتف الدكن بعزلتها إجمالا ، بل أقامت العوائق بين بعض ساكنيها وبعضهم الآخر : فمن ذلك أن جبال كهات[1] الغربية الوعرة منعت سكان السهل الساحلى من تخطيها إلى الشرق ، وبهذه العزلة اختلفوا عن بقية الهنود فى اللغة والعادات ؛ ومثل ذلك يقال عن كهات الشرقية . ونشأ عن هذا تعدد اللغات بحيث يتكلم سكان الهند ٢٢٥ لغة فى أقل تقدير . فإذا انتقل هندى من بيئته الصغيرة صار غريباً فى البيئات الهنـدية الأخرى لا يعرف لغاتها ولا عاداتها .

ولا تنتهى المفارقات فى الهند عند حدود الدكن ، بل تجاوزها إلى ما عداها من الأجزاء ولنضرب لذلك مثلا بالمفارقات بين البنغال — الذى يسمى جزء منه الآن الباكستان الشرقية — وكشمير : فالبنغال سهل فيضى لا يعلو مستوى سطح البحر إلا قليلا ، وكشمير بلد جبلى فى أعالى السند ؛ والبنغال خصب مزدحم بالسكان بينما كشمير قاحلة فى بعض أجزائها وقليلة السكان ؛ وأهم أعمال سكان البنغال الزراعة ، وأهم أعمال كشمير الرعى ؛ والبنغال به أنهار كثيرة صالحة للملاحة ثم هى على ساحل البحر ، وكشمير جد بعيدة عن البحر والوصول إليها جد عسير .

وتظهر المفارقات فى المناخ كذلك : من ذلك أن درجة الحرارة تختلف مما دون الصفر إلى ٥٢ مئوية ومنه أنه إذا اشتدت حرارة الشمس على كتلة اليابس الآسيوية خف هواؤها فجذب إليه الرياح الموسمية الصيفية التى تمطر

---

(١) هذا هو اسمها الأصلى ومن أسمائها الشائعة غات وغاته .

سحبها على الساحل الغربى ، فإذا عبرت جبال كهات الغربية قل مطرها ، فإذا بلغت القوس الجبلية وتكدست سحبها فى المنحى الشرقى لهذه الجبال أفرغت فى ذلك المنحنى أغزر مقدار من المطر سمع به الناس ، وعجزت عن عبور تلك الجبال فاضطرت أن تسير محاذية لها فى اتجاه شمالى غربى تلقى على سفوحها قدراً من المطر يقل كلما بعدنا عن ذلك المنحنى المطير .

و إذا فارقت حرارة الشمس ذلك اليابس الآسيوى وانتقلت إلى المحيط خف هواؤه وجذب إليه الرياح من ذلك اليابس فبدأت تلك الرياح جافة ثم تشبعت بشىء من رطوبة خليج البنغال فأسقطت شيئاً من المطر على السواحل الشرقية للدكن ولجزيرة سيلان. ومن هذا يتضح أن المنطقة الواقعة بين القوس الجبلية الدائرة بالهند و بين جبال كهات الغربية — وهى منطقة منخفضة — تمر عليها الرياح الموسمية الصيفية مر اللئام لا تجود عليها بشىء من ماء سحبها الثقال . فإذا جاء الشتاء لم تحظ هذه المنطقة بقطرة من سحب الرياح الموسمية الشتوية . فهى لذلك صحراء جدباء صيف شتاء ، هى صحراء تهار[1] الواقعة إلى الشرق من حوض نهر السند الأدنى .

فلا غرو إذا تمثلت الهند لخيال العالم أرضاً لكل عجيب ، وأثارت حب الاستطلاع فى العلماء والفنانين والشعراء والسياح ، وترامت شهرتها إلى شعوب بدوية فيممتها واستوطنتها ولم يرض أكثر هذه الشعوب بها بديلا ، وتسامع الغزاة بخيراتها فاشرأبت أعناقهم لفتحها والسيطرة عليها ، ولا غرابة فى هذا كله : فالهند كما مر بك ليست أقليما طبيعياً ذا غلات محدودة بحكم موقعه

(١) هذا هو الاسم الذى تعرف به فى الهند ، ومن أسمائها الشائعة عند الأجانب تار وثر

وتضاريسه ومناخه ، وإنما هى عالم قائم بذاته يضم أقاليم طبيعية متباينة أشد التباين : فمنطقة فى أعالى هماليا[1] وكورا كورم يكسوها الجليد كأنها فى القطب الشمالى ، ومنطقة على ساحل الدكن تقاسى حرا كأنها على خط الاستواء ومنطقة فى سفوح هماليا تنعم بربيع أبدى .

وإذا وضعت يدك بين خط عرض ٢٥° شمالا وهو الذى يمر قريباً من إدفو وخط عرض ٣٠° شمالا المار بالقاهرة وحركت يدك على خريطة العالم إلى ناحية الشرق لمست فى جنوب السند صحراء تهار تشكو الجفاف ولمست فى البنغال أغزر بقاع العالم أمطاراً . ومن ثم كانت الهند متنوعة الغلات الطبيعية والزراعية فضلا عما ذاع عنها من كثرة الماس والياقوت واللؤلؤ وغيرها من الأحجار الكريمة .

ولعل كثرة خيراتها هى التى دفعت الطبيعة إلى تسويرها من جميع جهاتها : فأغلقتها من ناحية الشمال بأمنع سياج فى الدنيا بأسرها : ذلك هو جبال هماليا التى تمتد طولا أكثر من ٢٤٠٠ كيلومترا وتتسع عرضاً من ١٦٠ إلى ٣٣٠ كيلومترا تتلاحق فى هذا العرض سلاسل متوازية تقريباً تفصل بينها وديان هائلة وهضاب شاسعة تجعل كل غزو مسلح من هذه الناحية أمراً محالا . ومن أجل هذا لم ينزل بهذه الوديان غزاة البتة ، وإنما تسلل إليها مهاجرون أكثرهم من التبت وأقلهم من الهند .

وما أن استقر هؤلاء المهاجرون بتلك الوديان حتى أعفتهم الطبيعة من

---

(١) هماليا معناها موطن الثلج .

الغزو الأجنبي وحفظت عليهم استقلالهم إلى اليوم ، وأشهر الوديان الواقعة فى أواسط همالية « نيبال » وهو واد طوله ٧٠٠ كيلومتر وعرضه ١٢٥ كيلومتر .

على أن الطبيعة لم تكتف فى حماية الهند من الشمال بهذا السياج المتين ، بل شدت عضده بسياجين آخرين أحدهما إلى الشمال منه وهو صحراء التبت العظيمة الارتفاع المكسوة بالجليد الخالية من السكان ، والآخر إلى الجنوب منه وهو مستنقع[1] على سفوح هماليا الجنوبية عامر بعدد لا يحصى من الوحوش الضارية تغدو فيه وتروح لا يزعجها شبح إنسان ، لأن تفشى الأمراض و بخاصة أنواع الحمى يجعل إقامة الإنسان فى هذا المستنقع غير مستطاعة.

و إذا قاربت هماليا نهايتها الشرقية قامت جبال أسام بحماية الهند من الشرق وعاونتها فى تلك الحماية مستنقعات[2] واسعة النطاق فى دلتا نهر الكنج تكثر فيها الأشجار والنباتات الطويلة والمتسلقة ، وتأوى إليها النمور والفيلة والتماسيح والأفاعى ، وتنعدم فيها الطرق بحيث يندر أن يخاطر صياد بالتوغل فيها . و إذا قاربت هماليا نهايتها الغربية نابت عنها جبال كورا كورم وهندوكوش وسليمان بحيث تدور هذه الجبال — وما يرتبط بها من الهضاب — بالهند من ساحلها الشرقى إلى ساحلها الغربي .

وهذه السواحل ليست أقل حمية فى مطاردة الأجنبى . وتكاد لا تسمح له بمدخل إلى البلاد ، بل إنها لتضن بمكان يصلح بطبيعته لأن يكون ثغراً ، وفضلا عن ذلك فإن الساحل الغربى[3] أيام هبوب الرياح الموسمية الصيفية

---

(١) تعرف هذه المنطقة باسم ترائي .

(٢) يعرف أشد أجزاء هذه المستنقعات خطرا باسم سندربن.

(٣) يعرف أكثره باسم ساحل ملبار .

تتعاظم أمواجه فتتلاطم بالساحل فى شدة مزعجة . والحال فى الساحل الشرقى[١] قريب من ذلك . أما ساحل البنغال فأشد نكراً ، لأن تدفق مياه نهر الكنج يدفع أمواج البحر عن الساحل بحيث يكاد الاقتراب منه يكون متعذراً . وليس قيام مثل بمبى[٢] ومدراس وكلكته الا نتيجة لجهود بشرية جبارة بذلت فى إنشائها ، ونفقات سخية صرفت لوقاية السفن فيها . وعلى الرغم من هذا كله لم يعظم شأن بمبى الا بعد فتح قناة السويس و بعد إنشاء خطوط حديدية ر بطتها بداخل البلاد .

ولا يكاد الأجنبى يهبط بالساحل الغربى حتى تفجأه جبال كهات الغربية وهى سلاسل متلاحقة تنحط عمودية على سهل ساحلى ضيق وتقترب فى جزئها الجنوبى من الساحل بحيث تكاد تمحو السهل . ولذلك يصعب اجتيازها والتسرب خلالها إلى الداخل . فإذا هبط بالساحل الشرقى فهناك جبال كهات الشرقية ، وهى — و إن كانت أقل اتصالا وأخف وعورة من أختها الغربية — لا تشجع على الاتصال بين السهل الساحلى وداخل البلاد ؛ و يعاونها فى ذلك انتشار الأو بئة فى هذه المنطقة .

وكان من أثر انعدام الثغور الصالحة ، وقيام الجبال الشاهقة خلف السواحل أن زهد الفاتحون فى غزو الهند عن طريق البحر .

أما من ناحية البر فإن الطبيعة لم تحرم الناس من الدخول إلى الهند و إن جعلت ذلك الدخول جد عسير . وأشهر هذه المداخل ثلمة جوفها نهر برهمابوترا تسلل خلالها أناس قدموا من بورما والصين وتوغلوا في وديان كثيرة مليئة

---

(١) يعرف أكثره باسم ساحل كورومندل .
(٢) هذا اسمها الأصلى ومن أسمائها المشهورة بمباى

بالغابات الكثيفة بحيث لا يوجد طريق معبد ، إذ غزارة الأمطار هنالك تحول الأنهار سيولا والسيول غدراناً تنبت فيها الأعشاب الطويلة التى تطمس معالم الطرق وتنشر الأبخرة المفسدة للهواء بحيث لا يوجد على وجه الأرض بقعة مجهولة كتلك المنطقة على الرغم من قربها من البقاع المعمورة . والذين تسربوا إلى الهند عن هذا الطريق كانوا من القلة بحيث لم ينشئوا دولا . وكل ما تركوه من أثر إنما كان فى لهجات بعض السكان .

أما مداخل الهند التى يمكن اجتيازها فى مشقة عظيمة فتوجد فى الغرب وأهمها ثلاثة أولها يحاذى ساحل بلوچستان وساحل السند ولا بد لمن يختار هذا الطريق من قطع صحراوات تقفر قليلة الماء والسكان بل أن بعضها خال كلية من الماء والسكان . وهذا المسلك يؤدى إلى نهر السند كما يؤدى إلى صحراء تهار .

وثانيها ممر بولاق ويقع عند النهاية الجنوبية لجبال سليمان حيث تتصل هذه الجبال بهضبة بلوچستان الحالية . وهذا الممر يخترقه اليوم طريق حديدى يصل ما بين الهند و بلوچستان .

والممر الثالث — وهو أهم المداخل جميعاً — ممر خيبر الذى أحدثه نهر كابل فى سيره للاتصال بنهر السند ويبلغ طول هذا الممر ٤٨ كيلو متراً . وقد عبد الإنجليز على امتداده طريقاً جيداً وأقاموا على حراسته من ناحية الهند حصنين منيعين هما أتوك و بشاور .

ومن هذه الممرات الثلاثة — و بخاصة ممر خيبر — دخل إلى الهند جميع الغزاة . وأقدم من عرف من سكان الهند أناس على الفطرة كانوا يتنقلون على شواطىء الأنهار فى درجة منحطة من الحضارة . وكل ما بقى من آثارهم إنما هو ما كشف عنه أخيراً من رءوس سهام مصنوعة من الظران والكوارتز

ومن مقاشر وفئوس . وهؤلاء السكان تدرجوا فى الحضارة ببطء فصقلوا أدواتهم الحجرية وثقبوها وركبوا لها مقابض ثم صنعوا حلياً من الذهب والفضة وآنية من الفخار مايزال يماط اللثام عنها فى مقابرهم العجيبة وهى قطع من الحجر ينحتونها ويدفنون الميت فيها واقفاً .

وبقى هؤلاء السكان فى وديان الأنهار وفى السهول حتى داهمهم غزاة اضطروهم إلى الفرار إلى القسم الجنوبى من الهند وهو القسم المعروف باسم الدكن ، ثم مازالوا بهم حتى لجأ بعضهم إلى أعالى الجبال الشمالية من هذا القسم واعتصم الأكثرون بجباله الجنوبية فى الغابات الكثيفة والقنن المنيعة ومنهم نحو عشرين مليوناً مابرحوا غارقين فى خرافاتهم القديمة يعبد بعضهم الأرواح والجن والشياطين ويعبد آخرون الأفاعى والأشجار والأنهار وكل ما يوحى بالدهشة والفزع . ولم يتأثر هؤلاء الأقوام بالحضارات التى توالت على الهند اللهم إلا أن البريطانيين أجبروهم على الامتناع من تقديم القرابين البشرية ومن قتل الأطفال والحروب القبلية .

وهؤلاء وغيرهم من سكان الدكن يتكلمون لغات تسمى فى مجموعها الدراويدية وتشبه بعض اللهجات الموجودة فى سيبيريا وفنلندا . ومن ثم يظن أنهم دخلوا الهند من مداخلها الطبيعية فى الشمال الغربى ثم جلوا إلى مواطنهم الحالية .

وأول شعب دخل الهند فيما يقرب أن يكون تاريخاً صحيحا أناس طوال القامة شقر من الجنس الآرى قصدوها قبل مولد المسيح عليه السلام بنحو ألفين من السنين وكانت لغة هؤلاء السنسكريتية وعنها تفرعت جميع لغات

القسم الشمالى من الهند . والسنسكريتية ضمن مجموعة اللغات التى منها الإغريقية والسكلتية والتيوتونية واللاتينية الغربية .

وهؤلاء الآريون هم أصل الهندوس وقد دخلوا الهند عن طريق الممرات الغربية غازين مغالبين على العيش فكانوا يحتقرون الدراويديين السالفى الذكر ويصفونهم بأنهم سود لا أنوف لهم ولا آلهة ، كفار يأكلون اللحم نيئاً ، وأنهم لا ينتسبون إلى الجنس البشرى . ومن أجل ذلك جعلوا يطاردونهم ويستأصلونهم ما استطاعوا . وساعدهم على ذلك أنهم كانوا يعرفون الدروع والخوذات والخيل وعربات الحرب بينما كان خصومهم — وما يزالون — يكتفون بالقوس والنشاب .

ولم يمض كثير حتى فتح هؤلاء الآريون أرض الأنهار الخمسة — البنجات — ثم انتشروا بالتدرج البطىء فى سهل السند والكنج وحالت طبيعة الدكن دون توغلهم فيها . ومن هذا المستقر نشروا حضارتهم بفضل المدارس التى أنشأها قسوسهم وهم الذين عرفوا فيما بعد باسم البراهمة . وما يزال هؤلاء القسوس أو البراهمة أصحاب النفوذ فى كل قرية هندوكية يحترم العامة علمهم ويجلون ما يدعون إليه من السمو الخلقى . بل إنهم يعدونهم معبرين عن الرب ، وأنهم وحدهم خلقوا من رأسه ، بينما خلق الملوك والمحاربون من ذراعيه بقصد غزو الكفار وإخضاعهم للبراهمة . وأما سكان الهند الأصليون — وهم السود الذين لا أنوف لهم — فقد خلقوا من قدمى الرب للقيام بالأعمال الدنيئة . ومن هذا الأصل نشأ انقسام سكان الهند تبعاً للون والجنس والمهنة والدين طوائف كل طائفة منها منعزلة عن غيرها خاضعة لتقاليدها

وعاداتها الخاصة . و بلغ من جمود هذه الطوائف أن أصبحت الفوارق بينها كأنها قضاء من الرب أوحى به إلى البراهمة منذ الأزل .

ودخل الهند بعد ذلك الأسكندر المقدونى عن طريق ممر خيبر وعبر السند قرب أتوك على جسر من السفن وذلك سنة ٣٢٧ ق . م . وفتح الاسكندر القسم الغربى من البنجاب ثم أبى جنوده التقدم شرقاً فغادر أكثر جيشه البلاد عن طريق ممر خيبر وغادرها هو مع القسم الأصغر عن طريق بلوچستان فقاسى أهوالا ومشقات فنى بسببها نصف من رافقوه من العطش والمشقة . وجلا بقية الإغريق عن البنجاب فى مدى عشر سنين . وعلى الرغم من ذلك فقد كان غزو الاسكندر للهند فاتحة اتصال بينها و بين أوربا استمر قروناً طويلة .

وقد علمت أن العرب اتصلوا بالهند من عصور سحيقة وكان هذا الاتصال عن طريق البحر يمخرونه فى سفن صغيرة تحاذى الساحل من مسقط وغيرها حتى تصل إلى جزيرة سيلان . وعلمت كذلك أنهم كانوا يجلبون نفائس الهند من الحرير واللؤلؤ والجواهر والياقوت والقرفة والتوابل والفلفل والزنجبيل والقرنفل وجوز الطيب وصمغ اللك المعروف اليوم باسم « جومالكه » وغير ذلك مما زعموا اللاور بيين أنه من غلات بلادهم وأنهم يقاسون فى الحصول عليه شدائد تبرر الأثمان الباهظة التى كانوا يفرضونها . فلما جاء الإسلام وملك المسلمون بلاد فارس وجد خلفاء الأمويين أن قبائل الأفغان لا تنفك تغير على ما جاورها من دولتهم فكلفوا محمد بن القاسم الثقفى عاملهم على مكران أن يرد شر هذه القبائل فاضطر محمد إلى دخول السند .

واختار الطريق الساحلى فلم يكن له بد من قطع صحراء مقفرة قبل أن

يصل إلى ثغر الديبُل وكان إذ ذاك على مصب هام من مصبات نهر السند الذى سماه العرب نهر مهران . أما الآن فقد بعد الساحل عن الديبل[1] فحلت محلها كراتشى عاصمة الباكستان فى عصرنا هذا . وسار محمد مع نهر السند متجهاً إلى الشمال حتى بلغ ملتان . وبذلك تم له فتح جزء من البنجاب . وبدأ الناس فيه يعرفون الإسلام ويعتنقه فريق منهم ، على الرغم من أن العرب لم يستقروا فيه طويلا .

وجاء بعد ذلك محمود الغزنوى فاقتحم الهند ١٧ مرة فى غضون ٢٥ سنة ونجح سنة ٤٢١ هـ ١٠٣٠ م فى امتلاك الجزء الغربى من البنجاب واتخذ لاهور قصبة لما فتحه . وكان ذلك أول حكم إسلامى مستقر فى الهند .

وتتابعت غزوات المسلمين لتلك البلاد وكان أعظم هذه الغزوات وأبعدها أثراً الغزوات التى قام بها بابر — بين سنة ١٥٢٥ وسنة ١٥٣٠ — والتى استولى بها على الهندستان — أى شمال الهند — وأسس الدولة المغولية التى بقيت بالفعل أو بالإسم إلى سنة ١٨٥٨ .

وقد قنع الأباطرة الأول من هذه الدولة بالهندستان علما منهم بالعقبات الطبيعية التى تحول دون إخضاع الدكن من قيام الفواصل السالفة الذكر والتى من أهمها جبال وندهيا وجبال سات پورا ثم وعورة جبال كهات الغربية وكهات الشرقية والجبال الواقعة فى أقصى جنوب الدكن : هذه الاعتبارات الجغرافية اقنعت هؤلاء الأباطرة بتجنب الاشتباك فى الدكن . فلما تولى الحكم أورانغ زيب (١٦٥٨ — ١٧٠٧) صمم على مخالفة خطة أسلافه فقضى ٢٦ عاما

---

(١) خرائب الديبل تقع الآن إلى الجنوب الشرقى من كراتشى على نحو ٧٧ كيلومترا

يحاول إخضاع الدويلات المنبثة فيها . فقهرته طبيعة البلاد واستنزفت ثروة الدولة فبدأت تضمحل كما حدث فى فرنسا أيام لويس الرابع عشر .

وقد أجمل العلامة جستاف لوبون فى كتابه « حضارات الهند » أثر المسلمين فى تلك البلاد بقوله: «مارس المسلمون فى الهند مثل النفوذ الذى مارسوه فى جميع أقطار العالم التى فتحوها . ولا أمة — كالمسلمين — تم لها من النفوذ البالغ ماتم للمسلمين كما أثبتناه فى كتابنا « تاريخ حضارة العرب » . ولا تستثن الرومان من ذلك ، ففى مدة سلطان المسلمين الذى دام فى الهند سبعة قرون غير فريق كبير من الشعب الهندوسى دينه ولغته وفنونه تغييراً عظيما ، وظل هذا التغيير بادياً بعد زوال ملكهم .

فعلى ماتعلمه من عدم تأثير الغزو الإغريقى للهند ، وعلى ماتراه من ضآلة النفوذ الانجليزى فى الهند تجد خمسين مليوناً من الهندوس يدينون بدين محمد » [1] .

وقد سبق لك أن الهند لم تفتح قط عن طريق البحر . ومن الخطأ البين زعم بعض الكتاب أن البريطانيين غزوها من هذا الطريق : ذلك بأن البريطانيين لم يدخلوا الهند فاتحين ، وإنما اتصلوا بها للتجارة منذ سنة ١٥٨٣ و بلغتها أول سفنهم بعد ذلك بثمانى سنين ، وأسسوا شركة الهند الشرقية بقصد تجارى بحت فى اليوم الأخير من سنة ١٦٠٠ ، وظلت سفن هذه الشركة تغدو وتروح اثنين وثلاثين عاماً دون أن تفكر الشركة فى غير التجارة . ثم نالت من أحد حكام الهند المسلمين حق إنشاء فندق على الساحل الشرقى يكون مقراً

(١) كان هذا فيما مضى ، أما الآن فيبلغ عدد المسلمين فى الهند نحو ثمانين مليوناً .

لوكلائها ومخزناً لسلعها ، ثم تبدى لها كما تبدى للفرنسيين من قبل أن ضعف الحكومة المركزية وتنازع الأمراء فيما بينهم يتيح لها فرصاً للتدخل فى السياسة المحلية بإعانة أمير على آخر ، ووجدت من اختلاف الطوائف ما يسر لها تجنيد هنود تستولى بهم على مساحات من البلاد ، وما زالت دائبة على ذلك حتى ملكت الجزء الأعظم من الهند بمال الهند وجنود الهند .

و إذن ، فلا مجال للقول بأن الدولة البريطانية غزت بلاد الهند عن طريق البحر أو عن طريق البر ، لأنه لم يحدث غزو من جانبها إنما هو تغلغل شركة تجارية استغلت ظروفاً خاصة ، حتى أصبحت صاحبة الأمر والنهى فى القارة الهندية — كما يسميها أهلها — فلما قامت الثورة فى وجه الشركة سنة ١٨٥٨ رأت الحكومة البريطانية أن تعاون فى القضاء على تلك الثورة وأن تضم الهند إلى التاج البريطانى . وذلك بعد أن مضى أكثر من قرنين على رسوخ قدم شركه الهند الشرقية بتلك البلاد .

ومنذ صارت الهند أنفس جوهرة فى التاج البريطانى حرصت بريطانيا عليها أشد الحرص ومن أجلها احتلت مصر وفصلت بين شقى وادى النيل .

والآن — وقد تركت الهند لأهلها — سقطت آخر حجة لها في البقاء بوادى النيل ، وأصبح المنطق يقتضيها أن تتركه لأهله يعيدون إليه سالف مجده و يرقون به إلى الدرجة السامية التى يخوله إياها موقعه الجغرافى الممتاز .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	الفصل الأول : جغرافية بلاد العرب .
١٢	« الثانى : طرق القوافل فى جزيرة العرب .
٢١	« الثالث : الظروف التى ساعدت العرب فى فتح العراق وفارس
٢٩	« الرابع : الظروف التى ساعدت العرب فى فتح الشام
٣٥	« الخامس : وادى النيل
٤٨	« السادس : بلاد المغرب
٦٣	« السابع : انتشار الإسلام فى الصحراء الكبرى والسودان الغربى والأوسط
٧١	« الثامن : انتشار الإسلام فى شرق أفريقية
٧٥	« التاسع : فتح المسلمين لبلاد الأندلس
٩٤	الهند
١٠٨	الخرائط .

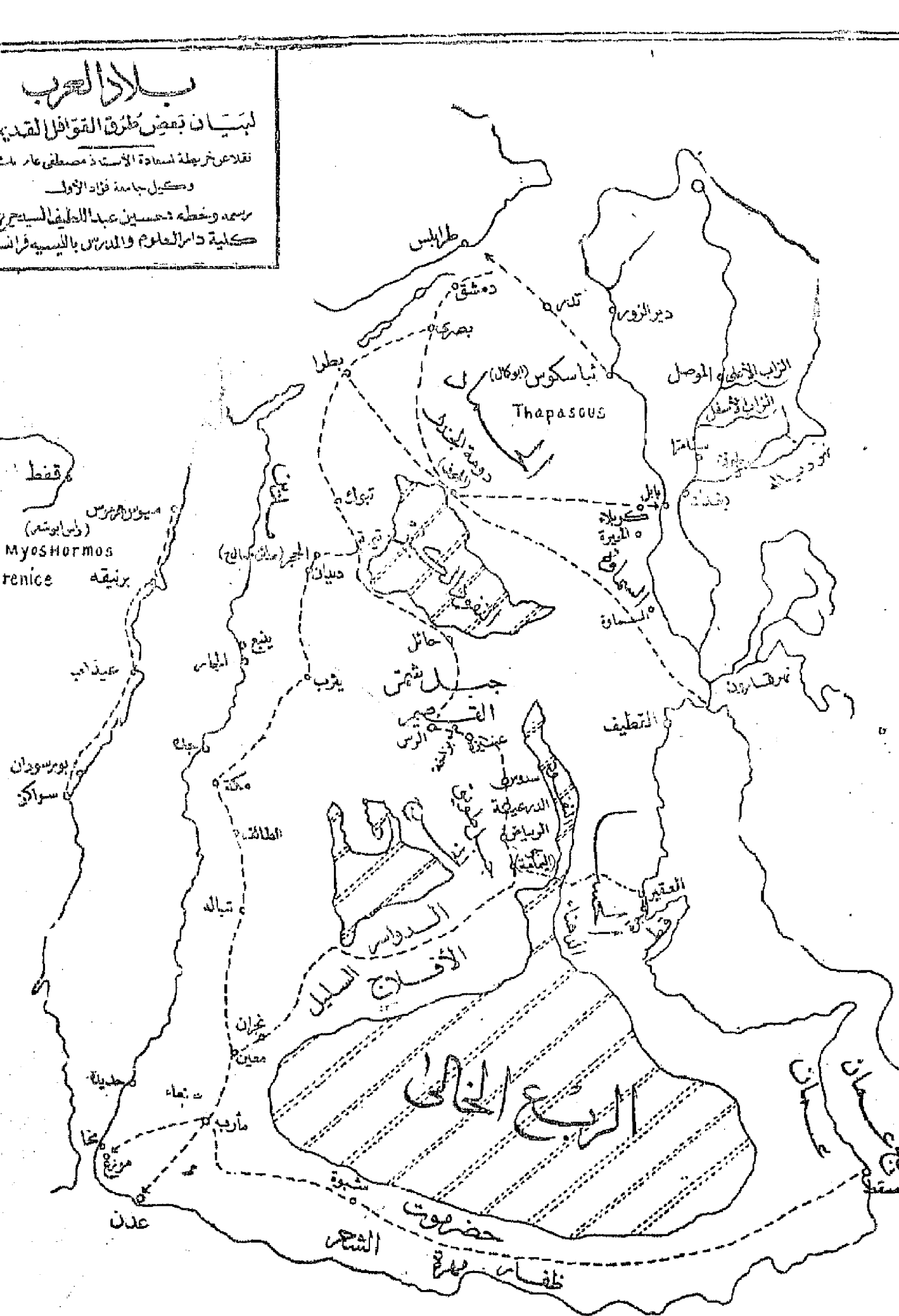
بلاد العرب
لبيان بعض طرق القوافل القديمة
نقلا عن خريطة لسعادة الأستاذ مصطفى عامر باشا
وكيل جامعة فؤاد الأول
رسمه وخطه حسين عبد اللطيف السيد
كلية دار العلوم والمدرس بالليسيه فرانسيز
طرابلس
دمشق
بصرى
تدمر
دير الزور
بطرا
ثباسكوس (البوكال)
Thapasous
الزاب الأعلى
الموصل
الزاب الأسفل
دومة الجندل
تبوك
بابل
كربلاء
المشهد
النجف
الحجر (مدائن صالح)
ديدان
قفط
ميوس هورمس
(وادي أبو سعد)
Myos Hormos
برنيقه
رنيقه
ينبع
المجاص
يثرب
حائل
جبل شمر
القصيم
عنيزة
الرس
التطيف
نهر فرات
جيزان
مكة
الطائف
بور سودان
سواكن
سدوس
الدرعية
الرياض
(اليمامة)
العقير
تبالة
الدواسر
الأفلاج السهيل
الربع الخالي
نجران
معين
حديدة
صنعاء
مأرب
موزع
مخا
شبوة
حضرموت
الشحر
عدن
ظفار
مهرة
عمان
مسقط

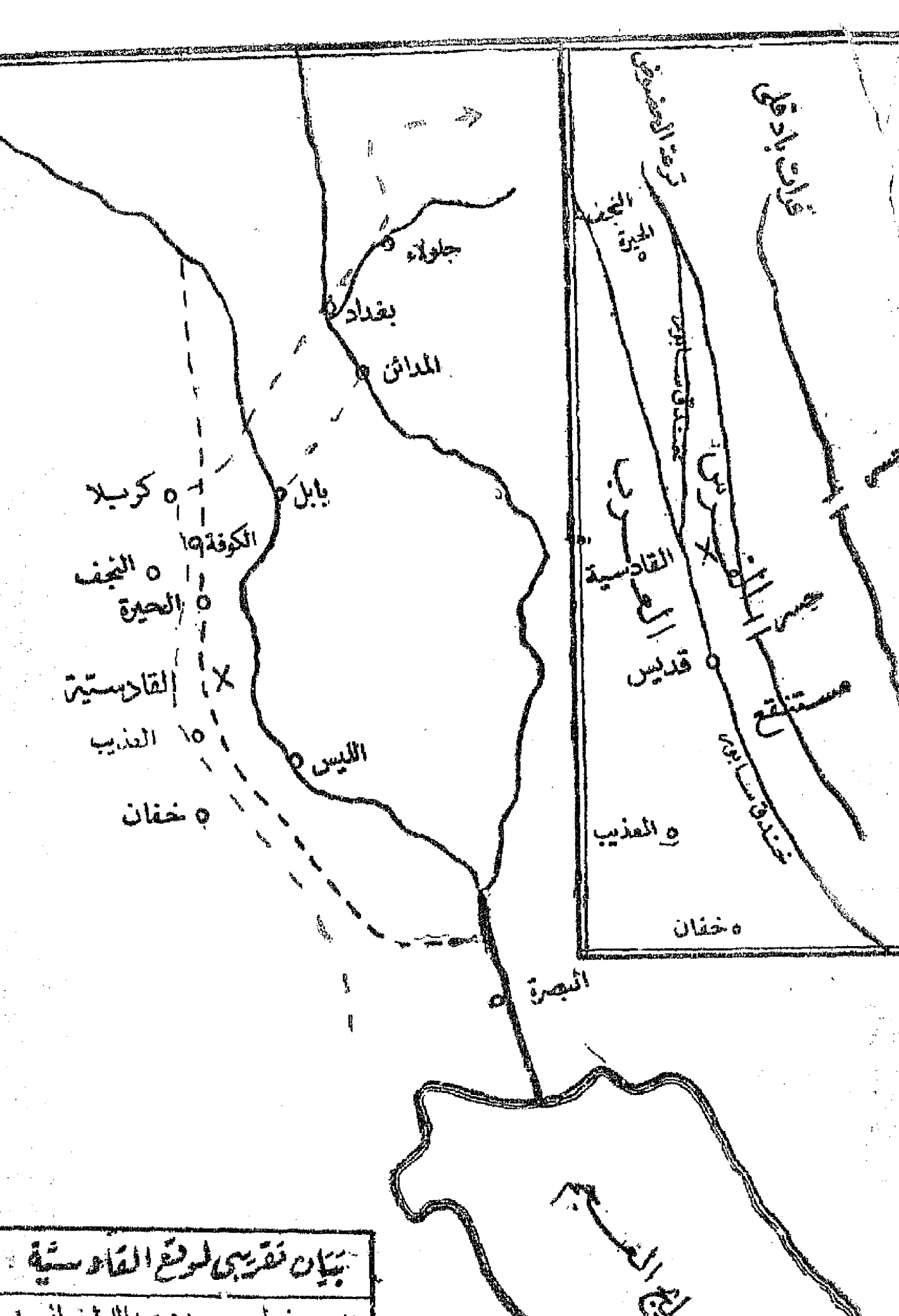

بيان تقريبي لموقع القادسية

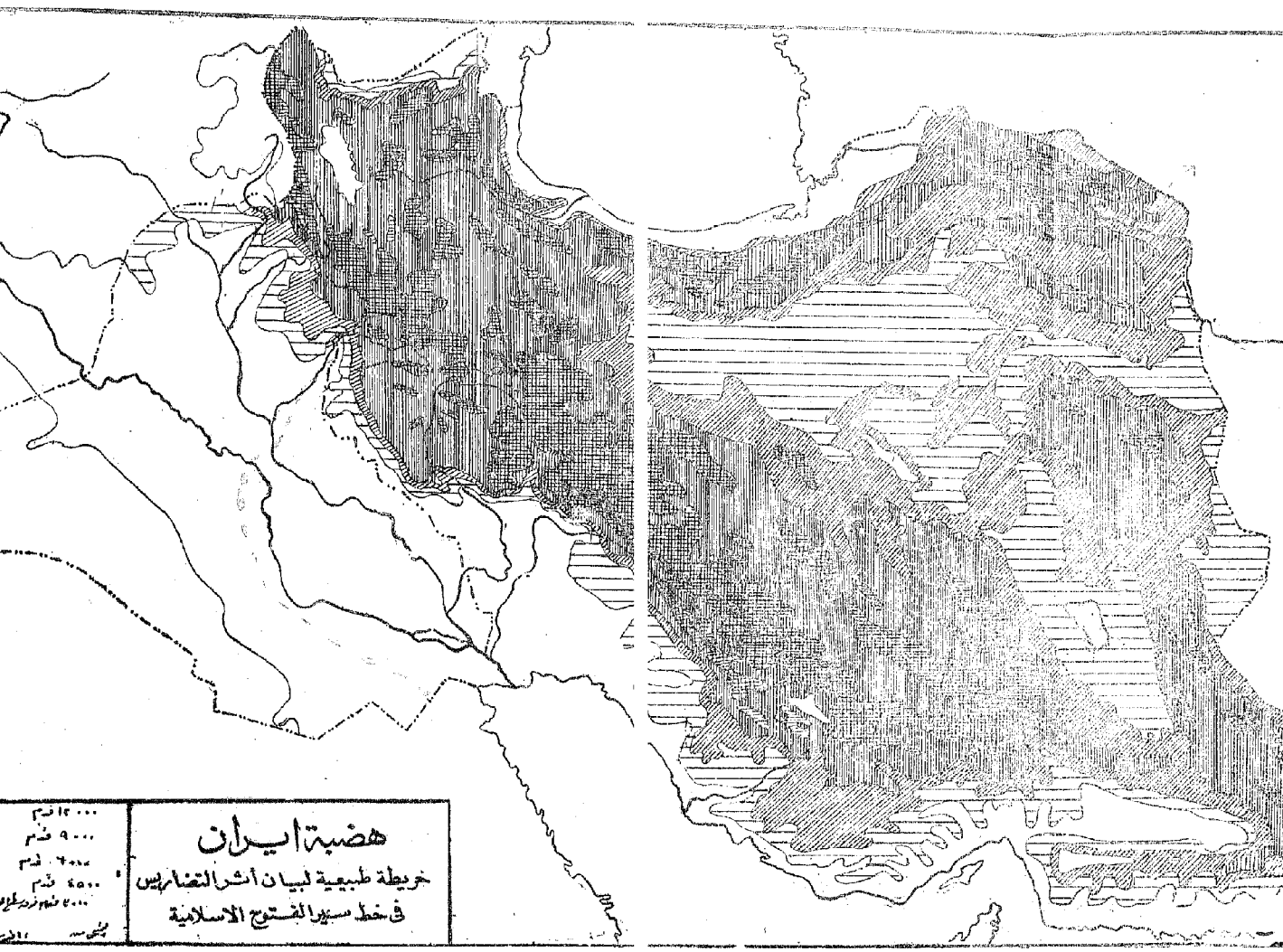
هضبة ايران
خريطة طبيعية لبيان أثر التضاريس
في خط سير الفتوح الاسلامية

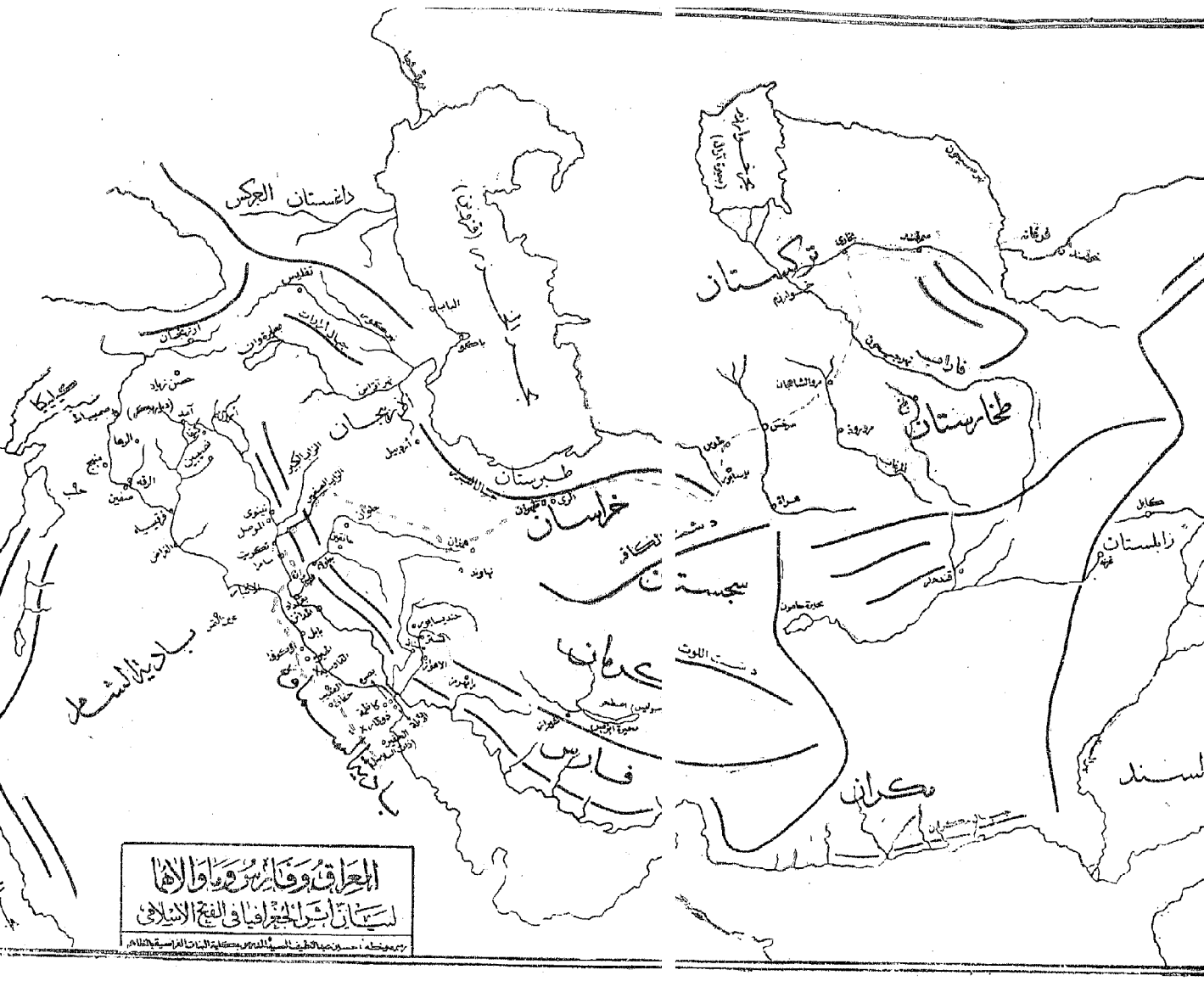
العراق وفارس وما والاها
لسان أثر الجغرافيا في الفتح الاسلامي
داغستان
القوقاز
أذربيجان
تفليس
جبال الكرد
الري
طبرستان
خراسان
الأهواز
فارس
بادية الشام
الكوفة
البصرة
واسط
بغداد
الموصل
الرقة
منبج
حلب
قنسرين
حمص
دمشق
تدمر
الفرات
دجلة
الزاب
نهاوند
همذان
قم
أصبهان
الري
طهران
سجستان
كرمان
مكران
طخارستان
زابلستان
قندهار
كابل
غزنة
مرو
بلخ
بخارى
سمرقند
فرغانة
ترمذ
مرو الشاهجان
نيسابور
الهند
السند

واقعة اليرموك

جمادى الثانية - رجب عام ١٥ هـ
يوليه - اغسطس عام ٦٣٦ م

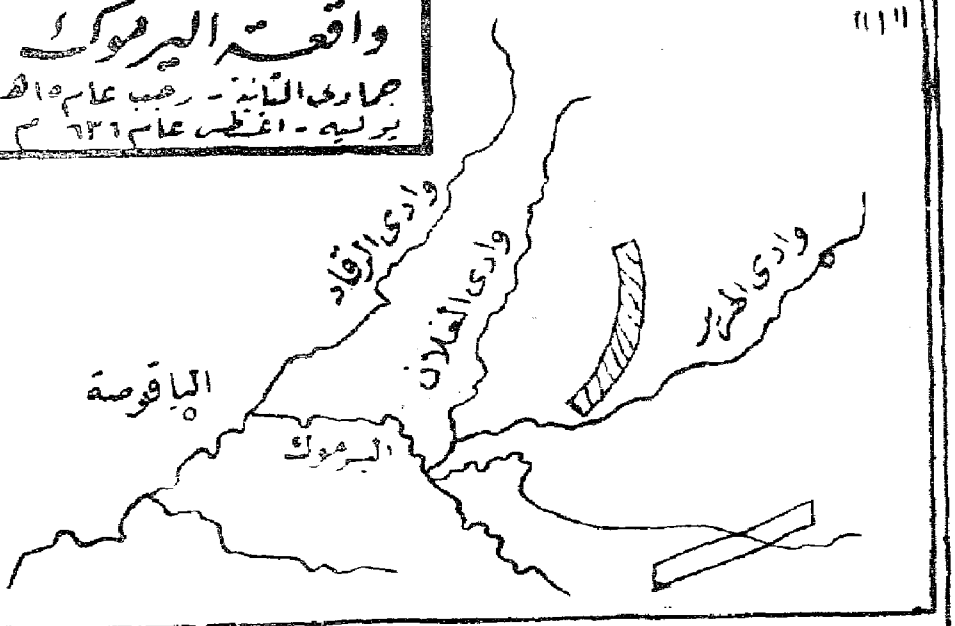

« ٢ »

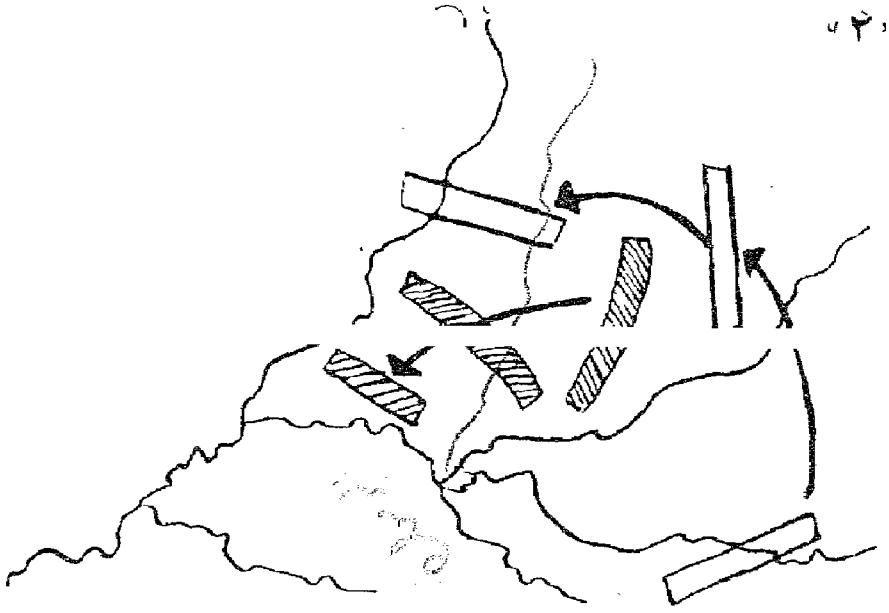

« ٣ »

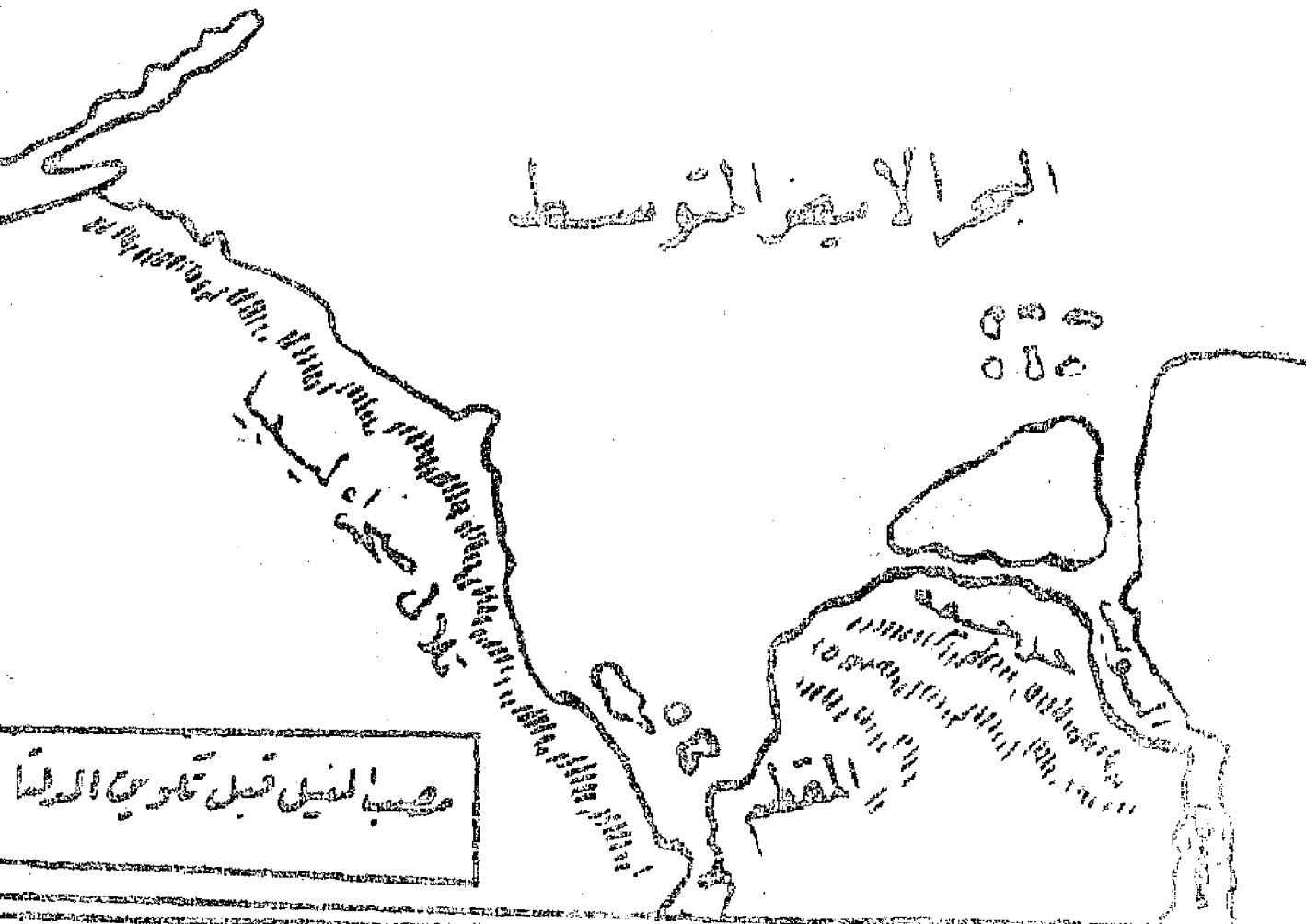
البحر الابيض المتوسط
مصب النيل قبل تكوين الدلتا

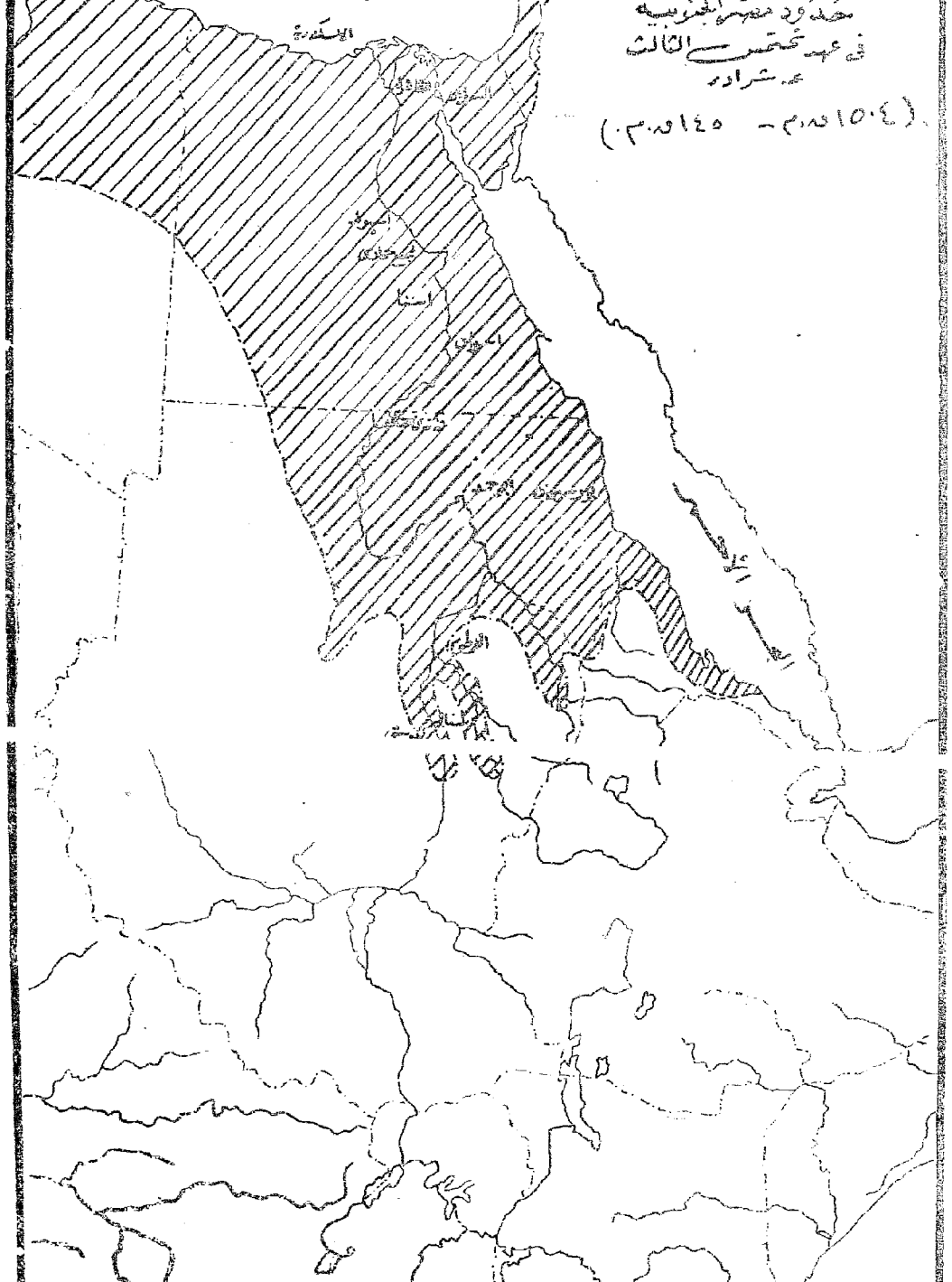
حدود مصر الجنوبية
في عهد تحتمس الثالث
عشرة
(١٥٠٤ ق.م - ١٤٤٥ ق.م)

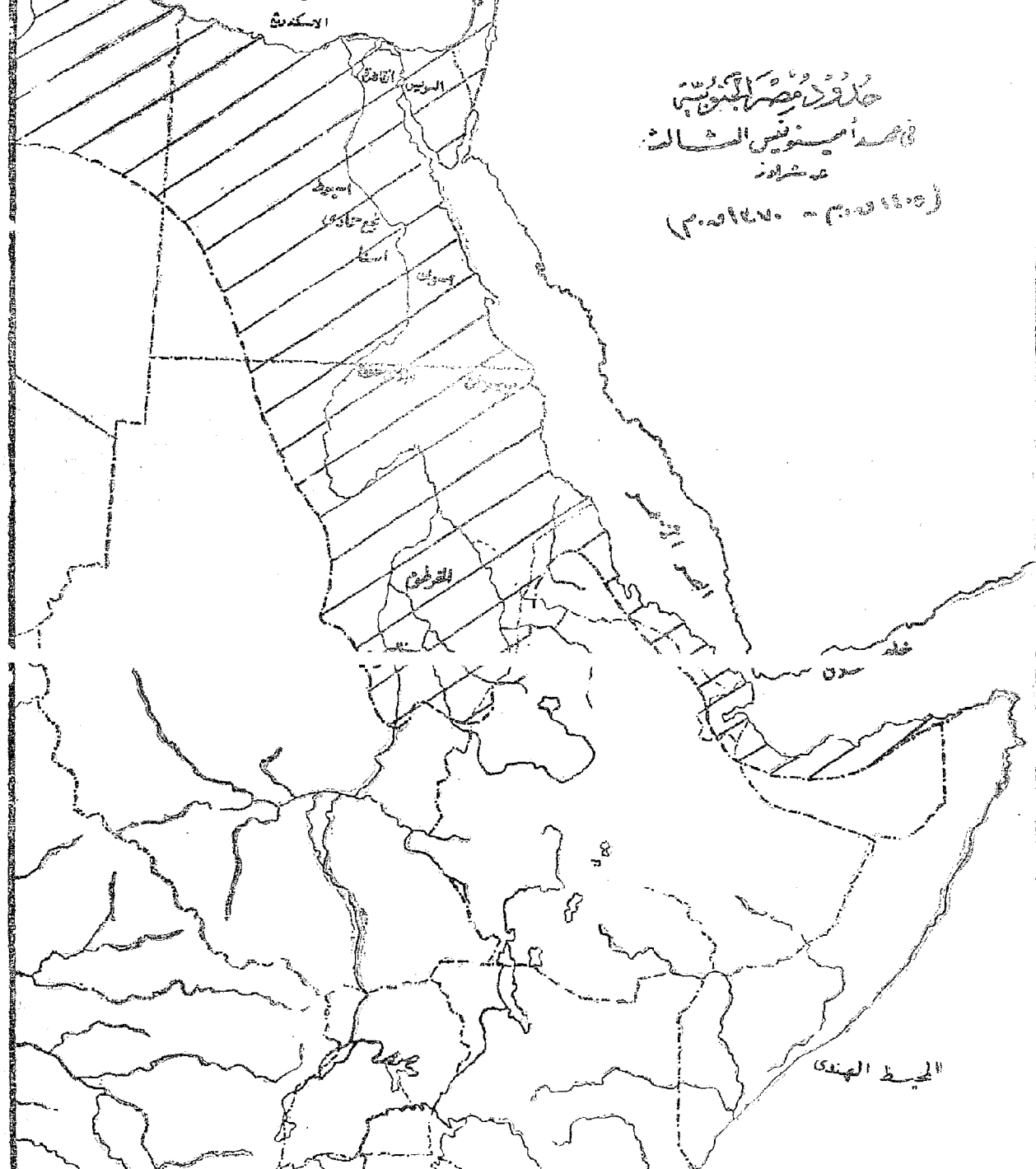
حدود مصر الجنوبية
في عصر أمينوفيس الثالث
عشرة
(١٥٠٥ - ١٣٧٠ ق.م)
الإسكندرية
القاهرة
السويس
أسيوط
نجع حمادي
أسوان
وادي حلفا
البحر الأحمر
خط سكة حديد السودان
الجزيرة
الحبشة
المحيط الهندي

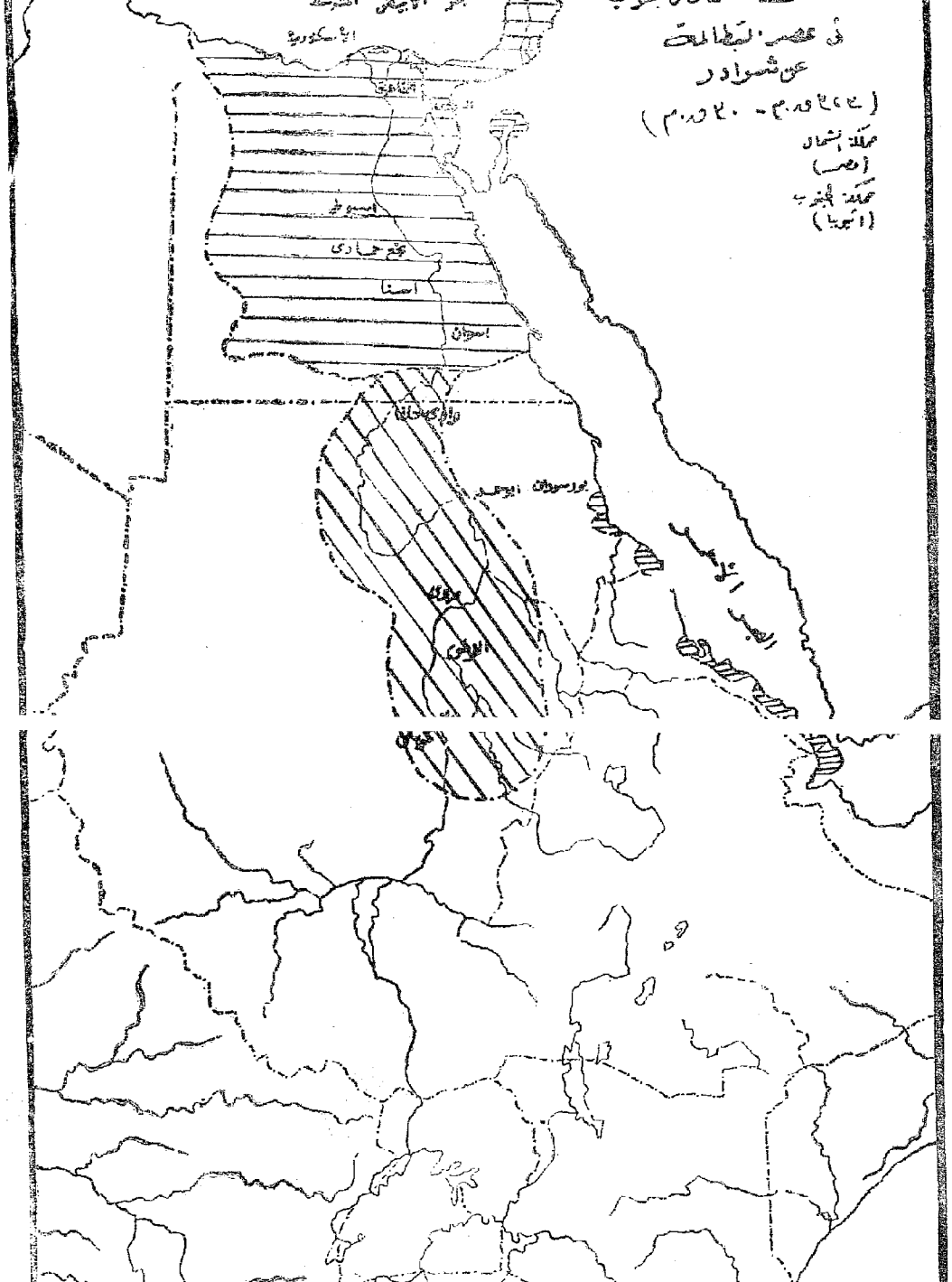
في عصر البطالمة
عن شوادر
(٣٠٥ ق.م - ٣٠ ق.م)
مملكة الشمال
(مصر)
مملكة الجنوب
(أثيوبيا)
الإسكندرية
القاهرة
السويس
بحر الإسماعيلية
أسيوط
بحر يوسف
سوهاج
قنا
أسوان
وادي حلفا
بحيرة ناصر
نهر النيل
البحر الأحمر

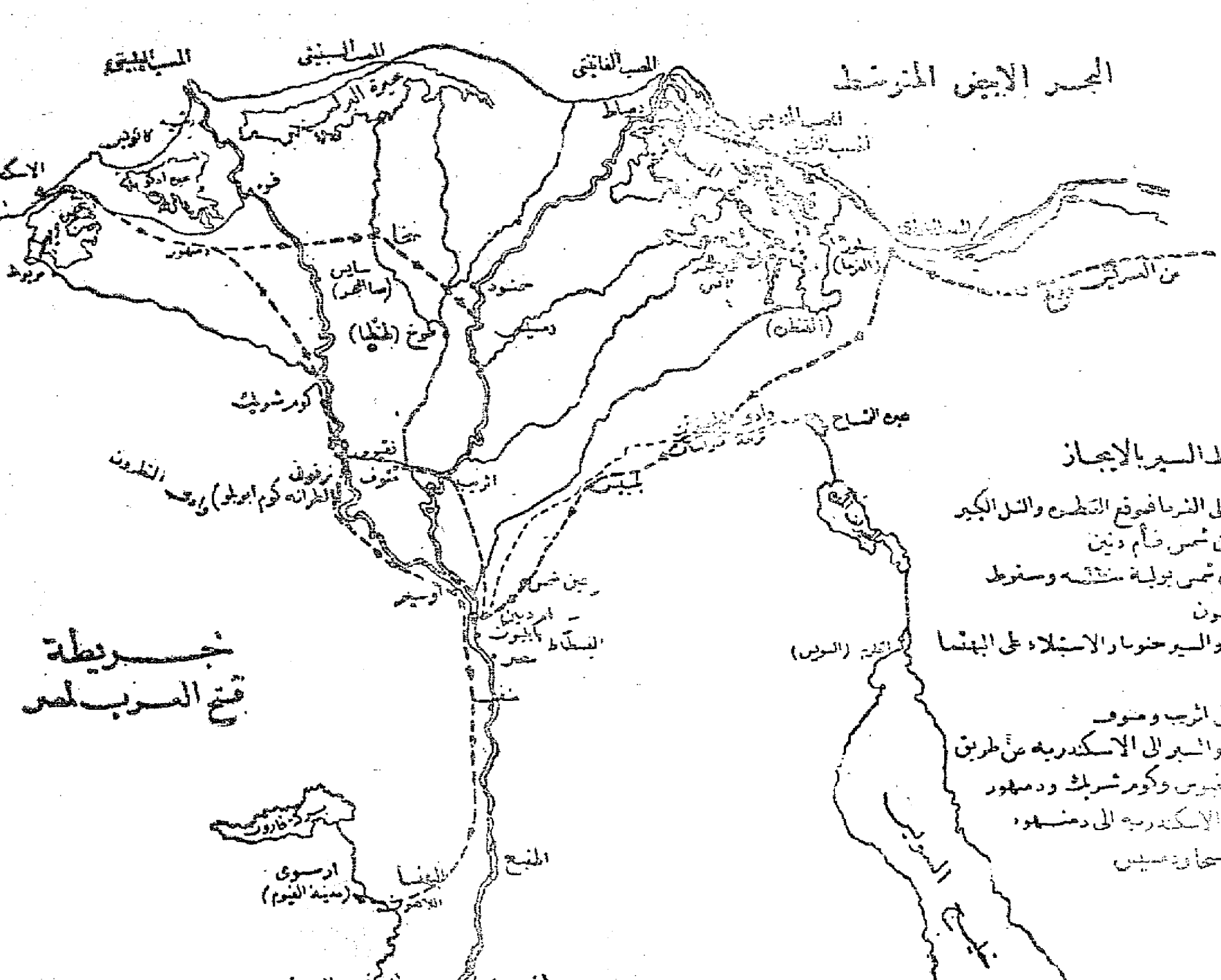
البحر الابيض المتوسط
المسا الغابتى
المسا البيتى
عبرة الرمل
فوه
سايس (صا الحجر)
منوف
ارتب
بلبيس
عين شمس
ام دينار
البساطين
مصر
منف
الفيوم
المنيع
ادسوى (مدينة الفيوم)
الاسكندريه
الطرانه (كوم ابوبلو)
كوم شريك
دمنهور
خط السير بالاجاز
1 من العريش الى الفرما فوقع القطم والتل الكبير
فبلبيس فعين شمس فام دنين
2 موقعة عين شمس بولاية منشه وسقوط
حصن بابليون
3 عبور النيل والسير حنوا والاستيلاء على البهنسا
والفيوم
4 الاستيلاء على ارتب ومنوف
5 عبور النيل والسير الى الاسكندريه عن طريق
الطرانه وتفيوس وكوم شريك ودمنهور
6 العودة من الاسكندريه الى دمنهور
ومنها الى حافة سيس
خريطة
فتح العرب لمصر

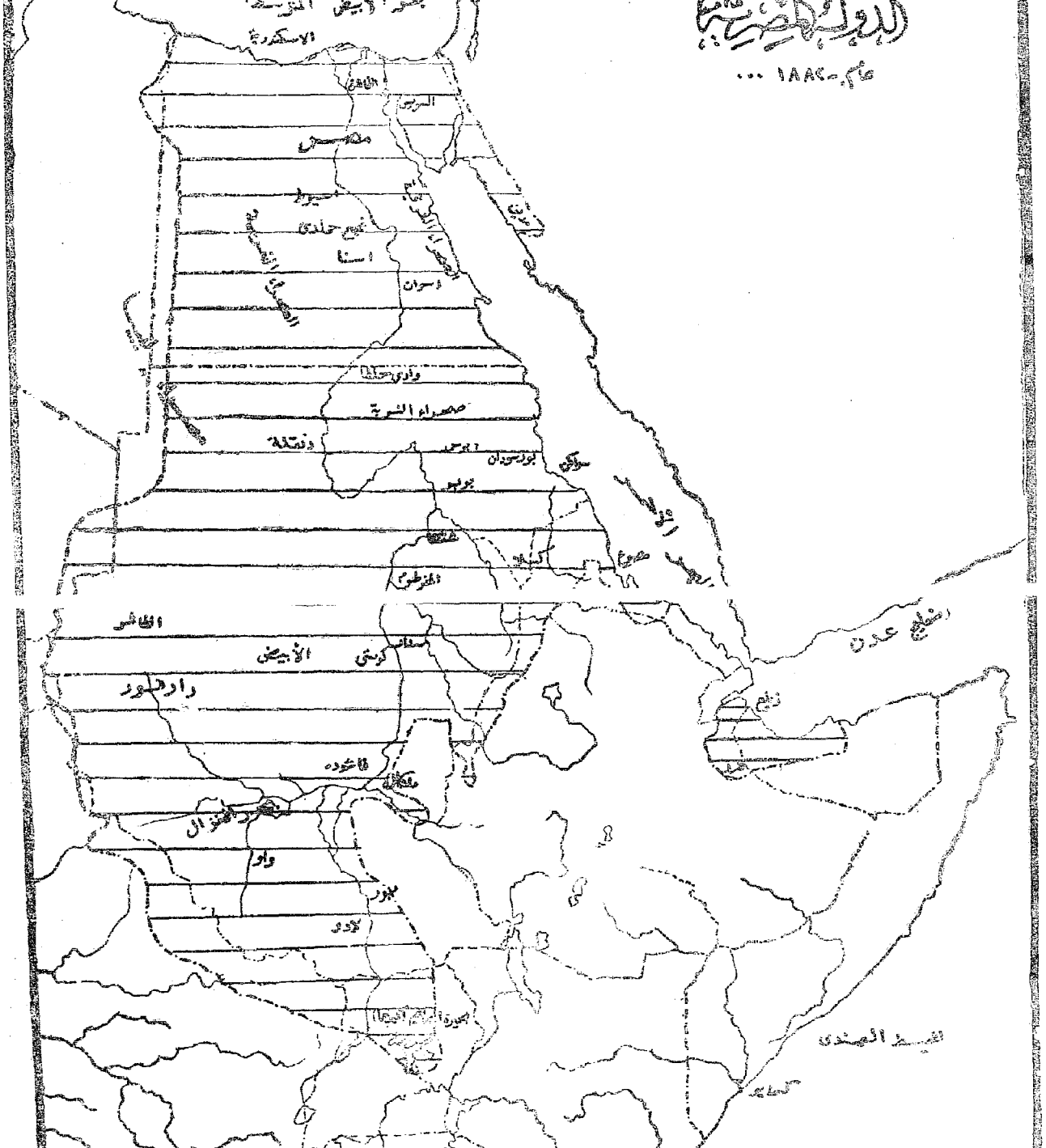
الدولة المصرية
عام ١٨٨٤ ...
الاسكندرية
مصر
اسيوط
اسنا
اسوان
وادي حلفا
صحراء النوبة
دنقلة
بربر
سواكن
كسلا
المتمة
الخرطوم
سنار
كردفان
الأبيض
دارفور
فاشوده
مكلاكل
بحر الغزال
واو
مبورو
لادو
خليج عدن
زيلع
البحر الهندي

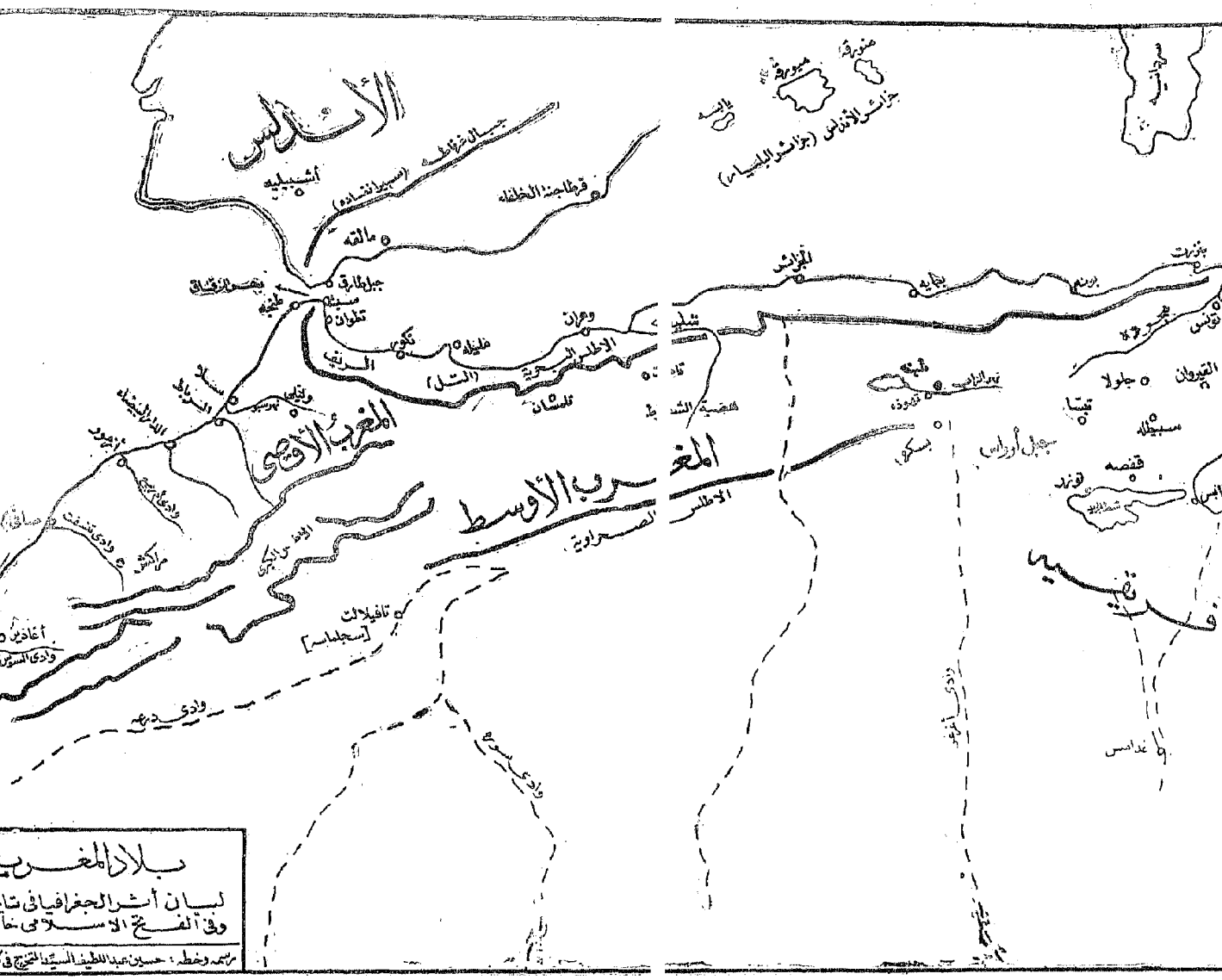

بلاد المغرب

لبيان أثر الجغرافيا في تا
وفي الفتح الاسلامي خا

رسمه وخطه : حسين عبد اللطيف السيد المتخرج في

المناخ الطبيعي في الوطن العربي

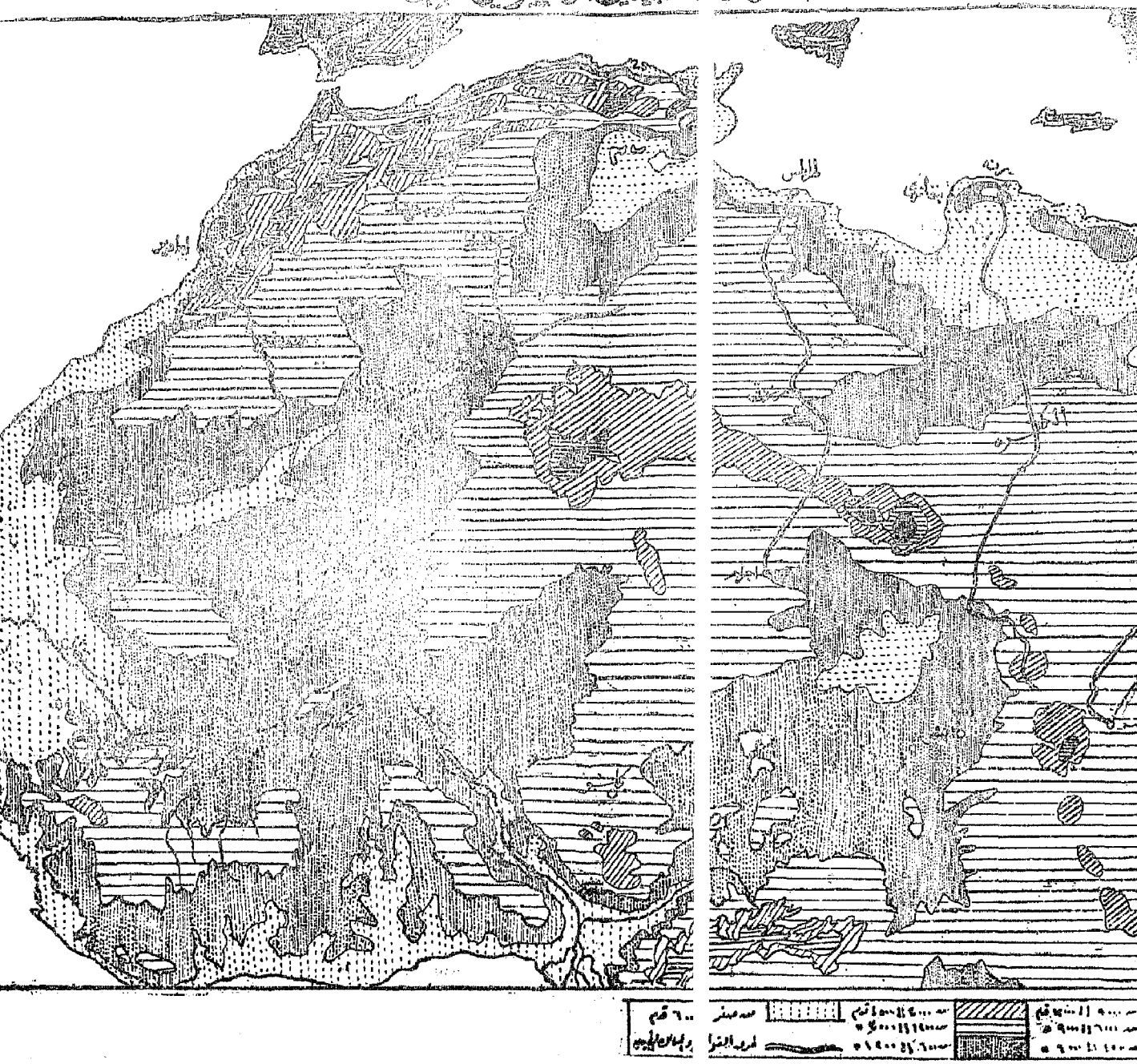

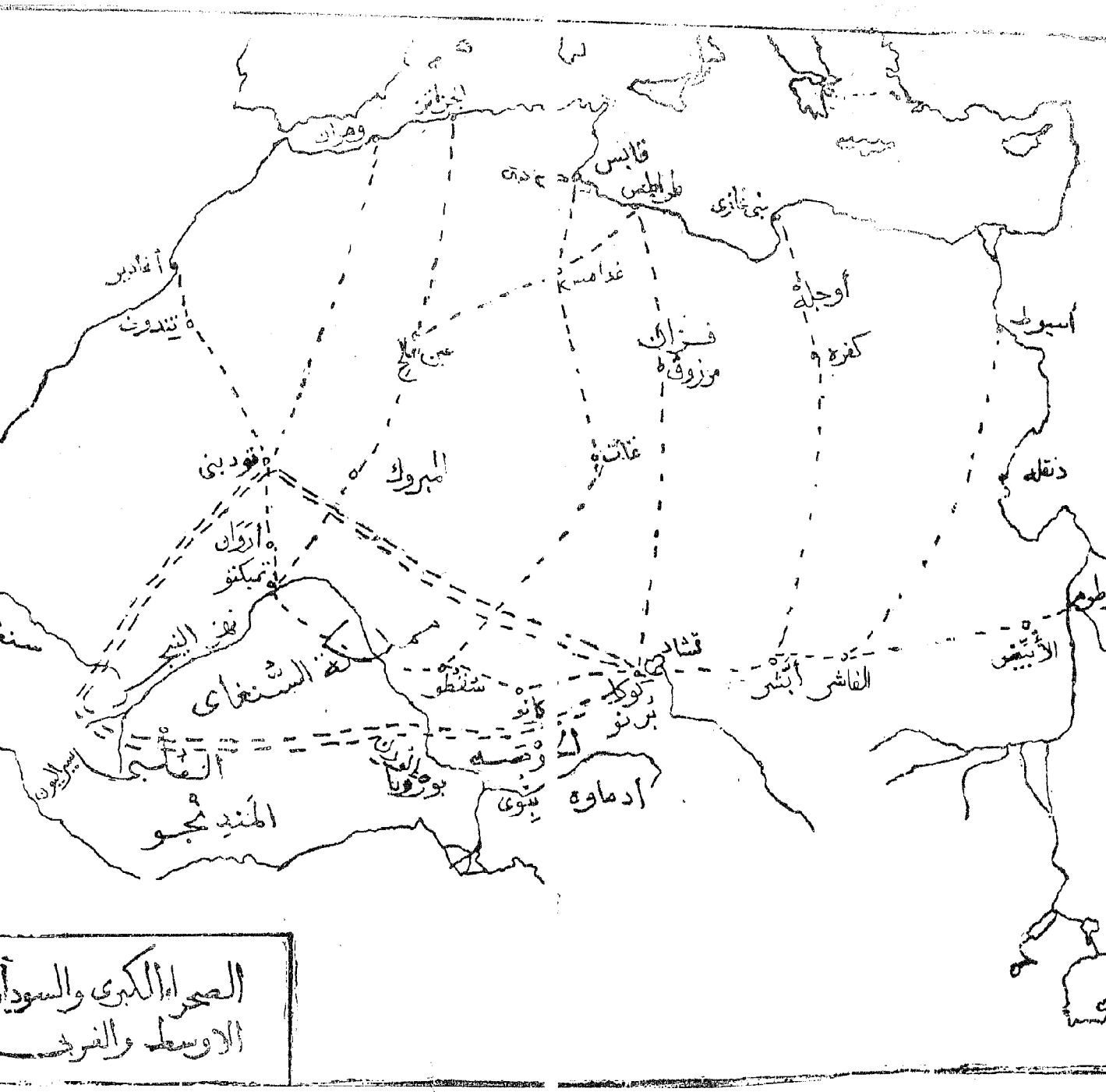

الصحراء الكبرى والسودان
الاوسط والغربى

كينيا
مومباسه
أوغندة
بحيرة
تنجانيقا
دار السلام
بلاد تنجانيقا
بحيرة نياسا
موزنبيق
سوفالة
دربار
شرق افريقية

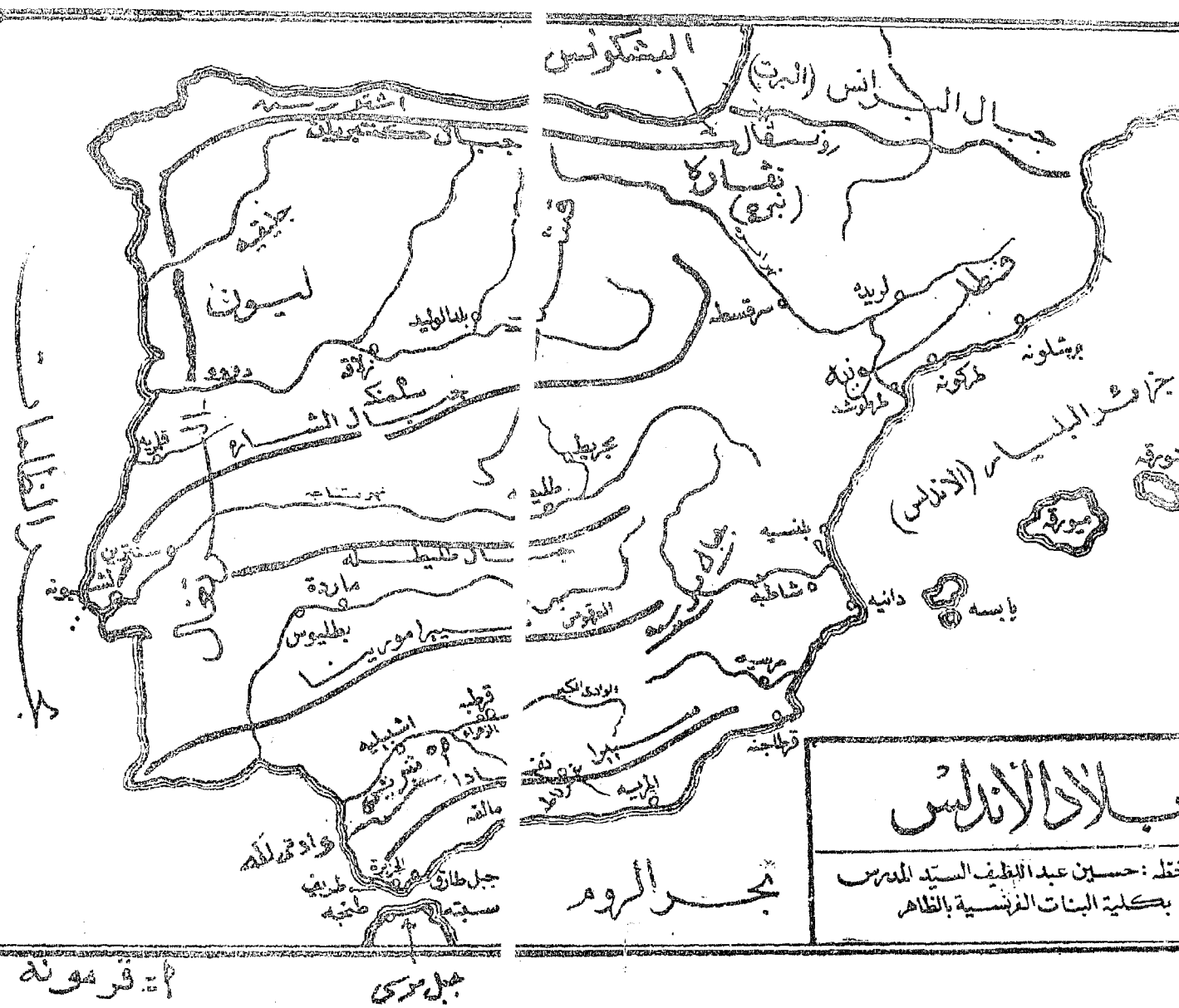

بلاد الأندلس

خط: حسين عبد اللطيف السيد المدرس
بكلية البنات الفرنسية بالظاهر

بلاد
الهند

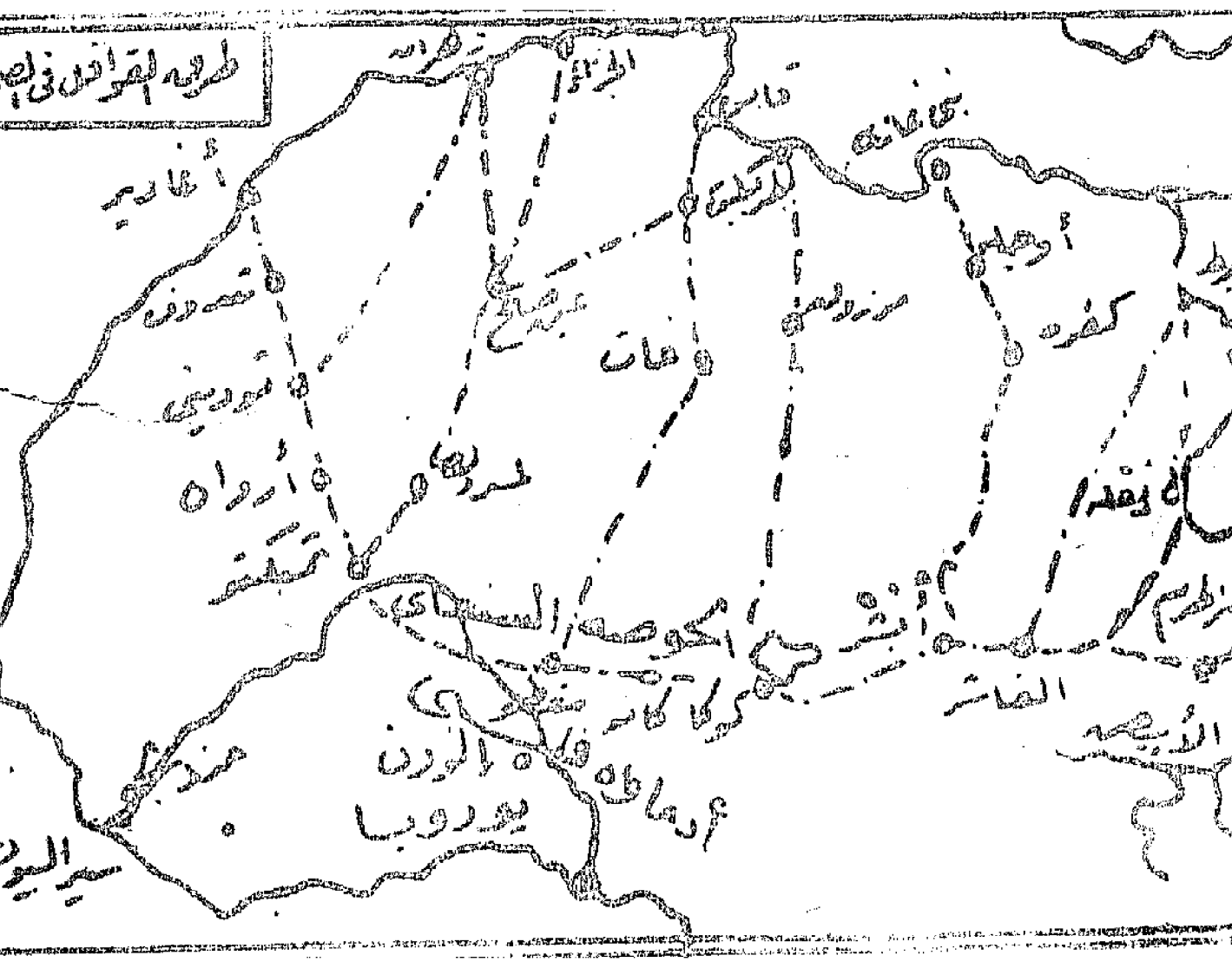

أخطاء مطبعية

يحسن تصحيحها قبل الشروع فى قراءة الكتاب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٧	١٩	حبالا	جبالا
١٩	١٧	القصر	القُصَيْر
١٩	١٩	خليج فوله	خليج فول
٢٠	٤	ثم حكموا	ثم حكموا اليمن
٢١	٦	الجبهتين	الجهتين
٢١	١٥	بزعامة هانئ	بزعامة المُثَنَّى
٢٢	١٠	المنادرة	المناذرة
٣٠	٣	وادى عربة	وادى عَرَبَة
٣٠	١٠	جبل هرمون	جبل حرمون
٣١	١٦	يقصد إحداها	يقصد أحدها
٣٣	١٣	لم يستطع الروم أن	لم يستطع الروم بعده أن
٣٦	٣	يلقى برواسيه	يلقى برواسبه
٤٤	٩	بل العرب	إبل العرب
٤٦	١٢	البفط	البَقْط
٤٧	٤	منضما إليهم	منضما إليه

صفحة	سطر	خطـــأ	صـــواب
٩٧	٢	المنحى	المنخى
١٠١	١١	بولاق	بولان
١٠٣	١٧	ذراعية	ذراعيه
الخريطة رقم ٥		البرموك	اليرموك
« «	٥	الباقوصه	الياقوصة
« «	٦	حل جيفه	جبل جنيفه
« «	٦	البحر الأبيض المتوسط	البحر الأبيض المتوسط
« «	٧	١٥٠٤ ق.م ـ ١٤٥ ق.م	١٥٠٤ ق.م ـ ١٤٥٠ ق.م
« «	٧	البحر الأبيض	البحر الأبيض
« «	١٤	بوروبا	يوروبا
« «	١٤	تودبنى	تودينى